11 : 11

ثورة روح

تأليف / ندى الديب

الأهداء

إلـيـك ..

أحبك لأنك فى الكتابة مُلهمى ، وفى الجنون مُعلمى ، وفى الصـلاة إمامى ، وفى الحب سيد قلبى ، أحبك لأنك أجمل الأشياء ، بل كل الأشياء وكل البشر .

"نبال قندس"

مدخل

أصبحت من ضمن عاداتى أن اتجول فى معرض للرسم .. لا اشترى اللوحات ، ولكنى إعتدت على التحديق فى الألوان .. كيف يستطيع الرسام أن يمزج الألوان بتلك الطريقة لتتشكل لوحة تعبر عن أفكاره ! .. أحدق فى اللوحات وتفاصيلها بدقة شديدة حتى أفهم ما يقصده الفنان بتلك الرسمة .. ولكننى فى النهاية انتقل من لوحة الى أخرى ولا أفهم من تداخل الألوان اى شئ .. أنظر نحو اللوحات محدقة بكامل تركيزى .. لا تغرينى أحداهن ، ولكنى وجدت روحى تقودنى نحو لوحة ، شعرت بأنها تلمع كنجمة وسط سماء صافية تماماً .. إنها غامضة .. وينتابنى الفضول لمعرفة من رسمها ! .. فتفاصيلها تشبهنى كثيراً ، وكأن من رسمها يعرفنى جيداً .. فتفاصيلها واضحة جداً بالنسبة لى .. إنها مختلفة ، فقد رسمها الفنان بالأبيض والأسود فقط .. تبدو تفاصيلها حزينة وقاتمة .. فقد رسم فيها الفنان فتاة ثلاثينية ، تحتضن نفسها .. يعلو وجهها الحزن ولكنها تقف صامدة فى منتصف طريق على جانبيه صحراء .. ويقف حولها من إتجاهات متفرقة أشخاص وجوههم عابسة ، يمدون أيديهم نحوها وهم يرمقونها بنظرة غاضبة .. وكأن كلاً منهم يحاول ان يجذب الفتاة نحوه بقسوة .. أشعر وكأن تلك الفتاة ثائرة على هؤلاء الأشخاص .. ولكنها لا تستطيع البوح بذلك .. فحين يتألم الإنسان يصبح عدائياً او إنطوائياً ولكنه فى تلك الحالة تصبح روحه ثائرة .. تحاول الخلاص من جسد لا يستطيع التعبير عن ألمه سوى بالصمت ..

فحين تثور الروح ، لا تهدأ حتى تتحرر من قيودها .. تتحرر من قوانين الحياة الفانية .. تخرج من شرنقتها كفراشة تحاول التحرر من قيودها لتبحث عن النور .. السلام .. لتهدأ .. ثم تتفنن فى خلق قانوناً خاص بها ، قانوآ لا يعرف المستحيل .. لا يخاف من المستقبل ، ولا يسعى للثأر من ماضيه .. روحآ تسعى للبحث عن نصفها الآخر ، روحآ أخرى تشبهها .. ثائرة مثلها .. تسعى تلك الأرواح لتكتمل .. لتنير العالم بضوء التسامح .. لتغير مفهوم العشق ، لتبدل عشق الجسد لعشق الروح .. تصنع لغة أخرى للسلام .

" تظل الروح ثائرة حتى تجد ملاذآ آمناً لتهدأ ، فملاذها الوحيد هو نصف روحها الآخر الذى تكتمل به ، فهنيئآ لمن كانت أقداره مضيئة له ، وإكتملت روحه وهدأت ثورته "

اللوحة الأولى

إنه يومآ باردآ وممطرآ كباقى ايام الشـتاء .. لا جديد .. أقف فى شـرفة غرفتى الصـغيرة ، أتأمل غيوم السـمـاء ، انها تبدو مخيفة ولكنها تحمل بداخلها أمنياتى التى أبعثها من خلالها .. إنها متغيرة تمضـى وتعود كأفكارنا وأقدارنا .. وبرغم أضـوائها الحزينة إلا إن لها بريق خاص بها .. فليالى الشتاء القاتمة نرتدى لها أرقى ثيابنا .. ونكتب فيها أجمل ما كتب فى الروايات .. فالأدباء حين يشرعون فى كتابة رواياتهم يختارون الأجواء الهادئة كليالى الشتاء حتى ينتجون فيها أفضل كتاباتهم .. لكن الغيوم بالنسـبة الى هى رسـول حزين يحل معه أمنياتى .. أبتسـم لها وأسـألها .. هل ستتحقق امنياتى ذات يوم ؟ .. لم تجيبنى يومآ ولكنها تمضـى بتلك الأمنيات علها تستجاب .. وتفسـح المجال لحبات المطر تتغلغل بداخلى .. وتنقى روحى من الألم وأنا أضـحك كطفل صـغير لا يبالى ببرودة الطقس وهو يحمل تلك الحبات بيده ويلقيها على وجهه بسـعادة .. ولكن فجأة يصفعنى الهواء البارد فيصعب تحمله لوقت طويل ..

اغلقت الشـرفة وركضـت للفراش احاول ان اسـاعد اطرافى المتجمدة على التدفأة .. تركض حولى "كيتى" تلك القطة المشاكسة ، تحاول ان تختبأ بعيدآ عنى وتجلس تحت سريرى ، انها تعلم بأننى لا أهتم بها ، ولن احاول لمسها فأنا اخاف ان اقترب من هذه الكائنات الضـعيفة .. لا اعلم لماذا ؟ .. ربما لأننى اشعر أحياناً بأن مشاعرى متجمدة مثل اطرافى تمامآ .. او ربما لأنهم يشبهون

شـيئآ بداخلى أكره ان أفكر فيه .. ربما رؤية خوفها او ضـعفها يؤلمنى .. لكن تلك المرة اجبرتنى نظرتها لى بأن أحملها برفق .. كانت نظراتها ممتلئة بالعتاب وكأنها تطلب منى ان لا أتركها .. حاولت ان اقتلع الخوف من داخلى وأحملها بين يدى خوفآ عليها .. كانت ترتجف بشدة ، لا اعلم اذا كانت ترتجف من خوفها منى أم من شـعورها بالبرودة .. تلك هى المرة الأولى التى المسـها فيها .. وضـعتها بجوارى على السـرير وهى تنظر نحوى بغرابة ، وكأنها تتسـائل : لماذا أشـفقت عليها تلك الليلة على غير عادتى معها .. ابتسمت لها لأطمئنها :

– لا تخافى يا صـغيرتى فأنا سـوف أكون لكِ الحماية من كل شـئ يؤلمك .. أعدك اننا سـندعم بعضنا دائمآ .

يبدو انها اطمأنت لى .. جلسـت بجوارى وكأنها تشـاركنى دفأ الفراش ، وانا ايضـآ شـعرت بالدفأ بجوارها .. تلك الليلة الباردة فاضت فيها أفكارى .. تتصارع تلك الأفكار بداخل رأسى يبدو أنها ترغب أن تسكن الأوراق .. لا بأس سيهدأ عقلى بعد أن أسكب كل تلك الأفكار على الورق ..

التقطت دفترى الصـغير الذى اضـعه بجوارى دائمآ لأكتب فيه أفكارى العابرة .. حاولت مرارآ ان أقنع نفسى بأن البرودة التى اشعر بها هى برودة الشتاء وليست برودة مشاعرى .. فكرت طويلآ من أين ابدأ كتابة ! .. هل من بداية الرواية أم نهايتها ؟ .. ربما الاثنان متشابهان لدى ، فجميع الروايات بدايتها مزيج من الخوف واللذة .. ونهايتها مزيج من الخوف والالم .. لكن اليوم أريد ان اكتب عن شـيئآ مختلفآ .. عن الأقدار .. يا لها من كلمة عميقة .. الأقدار أحيانآ تشـبه الغيوم التى كانت تملأ السماء بالخارج ، لا نعرف ما اذا كانت ستختفى فجأة ام ستمطر علينا سيلآ من

المياه يُغرق كل شـئ .. لا أعلم .. لكن كل ما أعرفه بأن كل ما هو هادئ فى هذا الكون الكبير لا يحب الغيوم .. كالورود لا تتفتح فى وجود الغيوم .. بل تشـعر بإنكسـار وذبول وتتغير ألوانها .. إذآ سـأكتب عن الأقدار .. او أكتب عن العشـق .. لكن كيف سـأكتب عنه وأنا لم أتذوق طعمه ولم أختار طريقى يومآ ؟ .. بل تحكم قدرى بطريقى ..

لم أملك يومآ رفاهية أخذ قراراتى ولا تحقيق رغباتى ، بل كان القدر يتحكم بى دائمآ .. حتى فى مشـاعرى لم يمنحنى القدر قلبآ صـالحآ للعشـق .. ولم أؤمن يومآ بالحب ولا سـحره ، ولكنى أؤمن بالقدر .. ولأن خطواتى فى الحياة قدرية ، أصبحت أنا أيضـآ شـخصـآ قدريآ يؤمن كثيرآ بأن للقدر سـحرآ يسـتطيع إخراجنا من طريق الى طريق آخر لم نكن نتوقعه .. لذلك دائمآ يتحكم القدر فى ابطال رواياتى .. لا أعلم لماذا لم اتحكم انا بها ! .. ولكن القدر يفرض نفسـه بها دومآ .. وكأنه يسكن بداخلى ويُملى علىّ ما يجب ان اقوم به فقط .

ماذا سـأكتب فى بداية روايتى ؟ .. هل أصـف بطلة روايتى بأنها حزينة دائمآ ؟ .. أم أتحدث عن حبيبها الذى إعتنقها كعبادة خاصـة .. أم أكتب روايتى الخاصـة .. لا أعلم من أين أبدأ .. فأنا مازلت أعيش بداخل صراعآ شديد القسوة والمتعة معآ .. بل والغرابة أيضـآ ..

فقد ربط بينى وبين ذلك الرجل رابط غريب .. يشـعرنى وكأننى خلقت من روحه .. فبرغم محاولاتى القوية أن أبتعد عن كل من يحاول من الرجال إقتحام عالمى الخاص ، الا أنه رجل مختلف .. رجلآ يعرف مفاتيح قلوب كل النسـاء .. بل أصـعبهن لن تكون صـعبة المنال عليه ، برغم جموده وقسـوة مشـاعره ، الا انه يعلم عن عالم النسـاء ما لم يعرفونه هن عن أنفسـهم .. تعشقه النساء ولكل منهن سببآ لعشقه ، فـرجلآ ثلاثينيآ وسيمآ مثله لم ترفضه أجملهن يومآ ، ولم

تستحيل عليه أجسادهن .. رجلآ لم يعرف لليأس طريق .. لا أعلم ما يميزه .. ولكن ربما تغريهن وسامته ، أو تغريهن كلماته حين يغازلهن ، أو ربما استحواذه على أجسادهن بإغراءاته الخاصة .. رجلآ لن يقبل بالرفض ولا الهزيمة أمام إمرأة .. فهو قادر على ان يفعل المستحيل للإستحواذ على من يرغب فى امتلاك جسدها .. فقد إعتاد على القبول ، ولم يستفز رجولته الرفض يومآ .. ربما كان سحره يكمن فى إنفراده بالثقة فى وسامته .. أو لإنه استثنائى بشخصيته وذكائه وقوة كلماته التى إعتاد أن يُلقيها على مسامع الجميع .. يبدو للوهلة الأولى شخصآ بسيطآ ، عاديآ .. لكنه أعمق مما كنت أظن ، فهو يمتلك من القوة الظاهرية ما يفرض به رغباته وقراراته على الجميع .. يشعر بلذة فى التملك وتسلط الرأى لا يستطيع أحدآ ان يهزمها .. يحاول أن يترك أثرآ بغموضه فى نفوس الأخرين ولكنه يحاول به إخفاء حقيقته .. فبداخله طفلآ صغيرآ يرغب بأن يفهمه أحد .. لم يسمح يومآ أن يدخل عالمه الخاص سوى شخصآ واحد .. لن يتسلل الى عالمه بل سيسمح له هو بمحاولة فك شفرة عقله وقلبه الغامضان ..

لم يتوقع هذا الرجل بأن قدره سيكون مختلفآ تلك المرة .. ولن يكون الوصول سهلآ لإمرأة مثلى لا يعرف كيف كانت معاناتها فى الحياة .. وإنها ستكون أصعب خططه ، وأقصى أمنياته .. سأكون المستحيل الذى لم يتذوقه يومآ .. سيكون عشقه لى هو القرار المؤلم الذى اتخذه بحياته .. كلآ منا يحمل شخصية مختلفة عن الأخر ظاهريآ ، بينما بداخلنا متشابهين ، نحمل من الألم ما يفوق إستيعاب الأخرين من حولنا .. وهذا ما جمع بيننا دون إرادة منا .. سحرنى هو بعمق كلماته وثقافته وذكائه .. بينما انا كعادتى كنت احاول الهروب .. الهروب من أقدارى .. من ألمى .. حاولت مرارآ ان أبتعد عنه .. ولكنه أخذنى إلى أعماقه .. وكأنه يرغب بإرادته ان أحتل قلبه وعقله دون خوف من المجهول .. فقد خُلق من قوة وشجاعة يحاول بها إمتلاك ما يريد ،

فهو قادر على ان يتناسى المكان والزمان والظروف التى تقف امامه ، معتقداً انه إذا اراد إمتلاك شيئاً ، فسيأخذه مهما كلفه الأمر .. بينما انا ؟ .. فكنت اضعف من أن أتناسى ما مررت به .. سنوات من الألم ، القسوة ، والعنف .. كانت تلك الأيام قادرة على كسرما بداخلى من قوة .. قتل طفولتى .. إحتراق أنوثتى .. تحطيم عقلى ، ودفن قلبى تحت أنقاضـــها .. تليها ســـنوات من النسـيان .. نسـيان من أكون ، وأين سـتؤول بى الظروف .. فخطواتى لم تكن معروفة .. وباب قلبى قد أغلقته على ذكريات لم أستطيع إقتلاعها من داخلى حتى أستطيع أن أعيش فى سلام .. فإمرأة مثلى لن يكون هو أكبر أمنياتها .. ولن أكون له العذراء التى حلم بأن يمتلكها .. فهو كان مبدعاً فى إختيار عشيقته .. صياداً تغريه الفريسة الصعبة المنال .. لكنه لم يدرك أن جاذبيته لن تستطيع إختراق قلباً أرهقه الألم مثل قلبى .. لن تغرينى كلماته .. ولن يستطيع إختراق حدود من الأشواك التى صنعتها الذكريات بداخلى .. لن يستطيع بكل ما أوتي من قوة أن يمتلك قلبى الذى أصبح مسجوناً بداخل صندوق أسود .. لا أجرؤ انا حتى على الإقتراب منه ..

لطالما إعتقدت أن القدر له كلمته الأخيرة فى تسْيير بعض جوانب حياتنا .. بل فى كل حياتنا .. يتحكم بها كيفما شـاء .. ولكنه لم يكن عادلاً معى .. لم يسـتطيع إنهاء الآم تسكن بداخلى .. لم يستطيع أن يُخرج من داخلى الصندوق الأسود الذى أخفي بداخله كل ذكرياتى المؤلمة ..

ربما ظننته قادراً على إقتلاع تلك الذكريات من داخلى .. قادراً أن يحطم كل القيود التى بناها كل من عَبّر خلالى من الأشـخاص .. أو أن يُنهى معاناة إسـتمرت لسـنوات بحياتى .. أو أن يقتلع من أعماقى الشجن الذى تخفيه إبتسامتى ..

لم يمنحنى القدر فرصــة لإختيار طريقى .. أو يمنحنى إبتســامة صــادقة من القلب .. او عشـقآ يُحيى بداخلى ورودآ قد ذبلت من المعاناة والألام .. لم يســاعدنى على تحقيق حلمآ كان يراودنى طوال حياتى .. او أن يُعيد لى طفولتى التى لم أشعر بها سوى من رؤية العاب الأطفال من بعيد .. او ضـــحكاتهم التى كانت تســـعدنى بقدر ما كانت تخترق قلبى وتُخرج منه حزنآ دفيناً .. لقد منحنى القدر مزيدآ من الألم ، ومزيدآ من اليأس .. فأنا لم أضِـــل طريقى يومآ ، بل إبتعد عنى الطريق بقوة القدر .. ولم أستطيع فعل شـئ سـوى الإسـتسـلام له .. وظننت أن الألم بات عادياً بداخلى وتعودت عليه .. لكنه لم يكن عادياً تلك المرة .. فأنا تركت عالم العشق مُرغمة ، وأغلقت أبواب قلبى .. حتى منحني القدر ألمآ جديداً لم أتحمله بداخلى .. فالألم الجديد من نوع خاص .. إنـه ألم العشـــق .. ألمآ يحرق بـداخلى كل عنـادى وقوتى .. إخترق قلبى وأراد أن يتوغل الى أعماقى محدثآ ضـجيجآ لا أقوى على تحمله .. هو إعصـارآ جعلنى أتناسـى كل ما ممرت به من ذكريات مؤلمة .. ولكنه برغم قوته الا انه لم يســـتطيع أن يجذبنى إليه .. فالخوف من المجهول كان أقوى من إستسلامى له ، حتى وإن كان هو سر سعادتى ..

حاولت الهروب من هذا الرجل العنيد مراراً .. لكنه يقاسمنى روحى .. يشاركنى أفكارى .. وكأننى خُلقت منه ، من جسده ، وروحه .. أصابنى عشقه كلعنة لا أستطيع الفرار منها ..

اتذكر يومآ كنا نتحدث عن اليوم الذى عرفته فيه ، وســـألنى هو نفس الســـؤال عن القدر الذى جمعنا .. هل هناك شيئآ مشتركآ بيننا أراد القدر أن نعرفه ؟

لم نجد إجابة .. وربما لم نكن نريد معرفة الإجابة ، فما كنا نشعر به كان كافياً حينها ..

لم أخطط أنا لذلك العشــق ، ولم يبحث هو عنه .. ولكن قدراً قوياً أراد ان يجمعنا ســوياً .. قدراً أراد أن يعيد بداخلى كل ما مضى من ذكريات .. أراد أن يُحيى بداخلى الطفلة التى قُتلت بداخلها الطفولة .. أن يُحيى أنوثتى التى وأَدها العابرون ..

***

فى أحد فصول الصيف الماضيين ، طلبت منى صديقتى وفاء ان أرافقها مع اصدقاءها فى رحلة لبضعة ايام ..

"وفاء" هى الصديقة التى منحنى قدرى صداقتها بلا مجهود .. نختلف عن بعض كلياً فأنا تعودت على العزلة والصمت الدائم ولا ابوح بأسرارى سوى لنفسى وأحياناً لا ابوح بها خوفاً من تجدد الألم بداخلى ، بينما هى فتمتلأ بالحيوية دائماً .. اشـــعر احياناً بأنى إبنتها المدللة ، او كقطعة زجاج تخاف عليها من الإنكســار او ان تتألم لأى سـبب .. أعتقد بأننى محظوظة بها كصـديقتى حتى فى أوقات جنانها ومزاجها المتغير ، لكننى أحبها كثيراً .. لم تكن علاقتى بأصـــدقائها قوية فقد تعرفت عليهم عن طريق وفاء ، ولكن كانت تربط بينها وبينهم علاقة صداقة قوية .. حاولت وفاء إقناعى بالخروج من عزلتى وأخذ إستراحة قصـيرة للسفر معهم لبضـعة أيام .. لم تروق لى الفكرة كثيراً كشــخصــية إنطوائية تعودت على العيش بداخل قوقعة خاصــة بها.. ولكنى قررت خوض التجربة من أجل وفاء التى رفضت السفر لعدم رغبتى بمرافقتها ..

بعد وصولنا الى الفندق ، جلست بغرفتى التى شاركتنى بها وفاء صامتة كعادتى ولم يتغير شيئآ فى روتينى .. أقضى وقتى كله فى القراءة، وإختلاس نظرة بين الفينة والآخرى من شرفة غرفتنا .. حاولت هى أن تقنعنى بالخروج من الغرفة ، إلا أننى شعرت بأن الوحدة تليق بى ..

مر اليوم الأول وانا مازلت أمكث خلف جدران الغرفة .. وفى يومنا التالى صممت وفاء ان نخرج سوياً من الغرفة والإنضمام للآخرين ، وافقت مشترطة عليها أن يكون خروجى من الغرفة فقط لزيارة الشاطئ ليلآ .. عند وصولنا للشاطئ شعرت بأن هناك شيئآ غريباً بالمكان لا أعلم ماذا يكون .. شعورآ برغم غرابته الا اننى شعرت بالراحة وانا فى هذا المكان ..

كانت السماء صافية والنجوم لامعة وكأنها تلمع لى خصيصآ ، فلم يلاحظ أحدآ كم كانت جميلة وهى تلمع .. جلست على الشاطئ أتأملها مع صوت أمواج البحر وهى تتسابق للوصول نحو الشاطئ ..

بينما الآخرون جلسوا بعيدآ ، يكاد يصلنى صخب أصواتهم التى ملأت المكان حولى .. كان الهواء يداعبنى وكأنه أراد أن يمنحنى بعض السكينة .. أنظر للأمواج وكأنها تسألنى عن ما أخفيه بداخلى من أحاديث يصعب البوح بها لأحد .. تسرد لى أسرار البعض ممن جلسوا بنفس المكان ، وتطلب منى أن أبوح بما داخلى مثلهم ..

سمعت صوت سيدة تتحدث مع وفاء وباقى الأصدقاء .. تقول لها بثقة " سأقرأ لك وأعرف ما تخفيه ، وما ينتظرك " .. يبدو لى أنها "قارئة وَدّع" ، ولكنها لا تشبه قارئين الوَدّع الذين سمعنا عنهم كثيرآ .. إنها إمرأة خمسينية ترتدى ثياب عصرية وتحمل بيدها حقيبة صغيرة أخرجت منها أوراقآ تشبه "الكوتشينة" قالت لهم أنها تسمى "تاروت" .. لم أهتم كثيرآ لما تفعله .. عدت انظر

مرة أخرى للبحر وأمواجه .. بعد بضـع دقائق إقتربت منى وفاء وإثنان من الأصـدقاء ومعهم تلك السيدة ، جلسوا بجوارى ويبدو على وجههم الإهتمام بتلك السيدة .. طلبت منها وفاء مازحة .. أن تخبرها السيدة عن ما أخفيه فى قلبى ؟..

نظرت السيدة نحوى نظرة ثاقبة .. ثم سألتها وفاء ..

– إخبرينى كيف سيُشفىَ قلبها من الألم الذى تكتمه بداخلها ؟

إبتسمت السيدة .. أتعلمين بأنكما متشابهتان وكأنكما خلقتما أخوات ؟ ..

– انا و "مريم" بالفعل أخوات فقد جمعنا الأمل فى الحياة برغم الألم .

تابعت حديثهما ولكنى أختلف عن الجميع بأفكارى .. لم تروق لى فكرة الإسـتبصـار للمسـتقبل ، فأنا لم أؤمن بمثل هذه الخرافات يومآ .. رفَضْـــت الفكرة كليآ وأخبرتهم بأننى لا أريد أن اخوض تلك التجربة .. ولكن زاد إلحاحهم أكثر ، فإقترح أحدهم بأن تســتبصــر له أولآ هو وحبيبته التى جلست بجواره تنتظر بشغف شديد دورها فى القراءة ..

عيناهما كانتا شـــديدة اللمعان وهما ينظران لبعضـــهما فى إنتظار قارئة التاروت لتخبرهما بما تحتويه تلك الأوراق من مفاجآت لهما .. أخبرتهم تلك المرأة وهى تنظر لهما بإعجاب شديد ، بإن والد أحدهما يرفض زواجهما .. وســوف يضــطر الحبيب للســفر لبلد غربى ليوافق والدها على زواجهما .. نظرا الحبيبان لبعضهما وكأن ما تتحدث عنه تلك المرأة صحيح .. صمت الجميع .. وقالت وفاء لقارئة التاروت وهى تشـــير نحوى : إقرأى لتلك الفتاة .. نظرت المرأة لى نظرة ثاقبة قبل ان تفتح الأوراق ، ثم قالت :

– هل مازلتِ لا تؤمنين بالقدر ؟

أجبتها وانا مندهشة من بصيرتها القوية .. كيف تعرفين ! ..

– اعرفك جيداً يا ابنتى .. فالأشخاص الذين يلتصق بهما قدرهم اشعر بهم سريعاً .

– لم اؤمن به ولكنى إستسلمت له ، حتى أنى أصبحت شخصاً قدرياً لا يعاند قدره مهما كان مؤلماً .. نظرت المرأة للأوراق لثوانى ثم نظرت لى وهى تبتسم ..

– سيكون قدرك أفضل مما تظنين ، وسيزول ألم قلبك بعد أن تذوقين طعم العشق .

– إرتبكت .. ولكنى لن أترك قلبى ليقع فى عشق احد .

– إن الأمر ليس بما تريدين أنتِ ، بل إبما يخططه قدرك لكِ .. العشق قدرك ، وتلك مشيئته "وأشارت نحو السماء"

سألتها وفاء بلهفة : ومتى وكيف ستقابل هذا العشق ؟ ، هل تستطيع تلك الأوراق الإجابة على هذا السؤال ؟

– سيكون عشقاً قدرياً ، ولن تستطيع الهروب من قدرها ؟ .. ستُشفىَ جميع الآمها بسببه .

– من سيكون السبب ؟ .. عن ماذا تقصدين ؟ ، عن العشق أم القدر ؟

لم تنطق المرأة ببنت شفة على سؤال وفاء .. لملمت أوراقها وغادرت فى صمت .. سألتنى وفاء وهى تبتسم : هل فهمتِ ما الذى تقصده تلك المرأة ؟! ..

أجبتها بلامبالاة مصــطنعة ، انا أخبرتك من البداية يا وفاء بأننى لا أؤمن بتلك الخرافات .. فلن يكون قلبى لأحد وأنت تعلمين كيف عانى هذا القلب ليظل صامدآ ..

مازال حديث قارئة التاروت محفورآ بذاكرتى حتى بعد عودتى .. هل يمكن أن يكون حديثها صـحيح ؟ .. أعلم بأن قلبى تألم كثيرآ ولن يسـمح للعشـق بأن يصـيبه ، فلن يكون ذلك قدرآ بل ستكون لعنة قد أصـابته .. فأنا لا أحتاج إلى عشـق يقتل ما تبقى من كيانى .. ولكن قدرى كان محتومآ .. فالعشـق كُتب على قلبى دون إرادتى ، ولم تكن كلمات تلك المرأة مجرد تكهنات كاذبة ..

***

لم يكن لقائنا الأول مُدبرآ ، بل قدريآ .. كان مجرد لقاء عابر أمام المشـــفى التى كانت والدتى تتلقى بها علاجها ..

أتذكر ذلك اليوم .. بل أنا لا أنســـى أى حديث دار بيننا حتى لو كان صـــغيرآ .. مازلت أتذكر نظرته لى يوم لقائنا الأول ؛ كان شديد الثقة بنفسه ..

حينما إنتهت والدتى من فحصها الطبى غادرنا المشفى ، ووقفنا ننتظر سيارة أجرة ..

فتذكرت أننى نسيت الأوراق الطبية الخاصة بوالدتى مع الطبيبة ، فتركتها تنتظر السيارة وصعدت السلم مسرعة للعودة للطبيبة مرة أخرى ، إصطدمت بـــه .. لم يكن مجرد صدام عابر ، بل كان شرارة العشق التى اشتعلت بداخلى .. كان تعارفى بذلك الرجل هو الحدث الأعظم فى حياتى .. نظرت له نظرة سريعة ، لم أقصد أن أدقق فى ملامحه ولكن وسامته سرقت نظرتى ، وكأن الزمن توقف مع تلك النظرة .. شاباً ثلاثينياً وسيماً ، عيناه سوداء عميقتان لا يستطيع أحد تفسير ما يملؤها من كلمات .. تلك النظرة السريعة كانت كافية لشعورى بجاذبيته الشديدة ..

حاولت إظهار عدم أهتمامى به برغم إنجذابى لوسامته .. كانت لا مبالاتى وتجاهلى لوسامته هى شرارة العشق بالنسبة له .. "فكيف يمكن لشخصاً طبيعياً ان لا يقع فى عشقه من النظرة الأولى كما إعتاد مع كل الفتيات اللواتى تعرفن إليه "! ..

أخذت الأوراق من الطبيبة وعدت مسرعة لوالدتى .. إندهشت عندما وجدته يقف بجوار السيارة .. ينظر نحوى بثقة شـديدة وكأنه ينتظر منى أن أبادله نظرة إعجاب تزيده ثقة بنفســه .. ولكن لم أكترث له " ربما متعمدة ".. ثم رحلت .. "يبدو أننى فى تلك الصدفة لم أنتصر انا على القدر، بل إنتصر قدرى علىَ "..

عُدت للبيت .. وبدأت اتفحص الأوراق الطبية .. ولكنها لم تكن أوراق والدتى ، بل كُتب عليها إســم (عادل زيدان) .. من هذا الرجل ؟! ، وكيف تبدلت الأوراق ؟! .. هل يمكن ان يحدث خطأ كهذا ! ..

ذهبت فى اليوم التالى للمشفى أحاول ان اجد تفسير لهذا الخطأ .. فقد أخبرتنى بأن شخصاً ما سأل عن أوراقى وأخذها ..

– سألتها بحدة : من هذا ؟ ، أنا لا أعرف أحداً ، ولم أرسل أحداً لإستلام الأوراق !

– انه شاباً ثلاثينياً يُدعىَ عادل وقد أخبرنى بأنه واحداً من أقاربك، وسوف يُسلمك الأوراق بنفسه ..

يبدو إنه نفس الشخص الذى كُتب إسمه على الأوراق الموجودة معى .. تساءلت لماذا فعل ذلك ؟!

غادرت المشفى بخطوات متثاقلة وأنا شاردة أفكر فيما حدث .. مَن يكون ذلك الرجل ؟ .. ولماذا فعل ذلك ؟ وكيف علم بوجود أوراقاً لى بالمشفى ؟

إصـــطدمت به للمرة الثانية .. ولم تكن تلك المرة صـــدفة ولكنها كانت مَدبرة منه .. نظرت له بإقتضاب .. هل لقائنا هذا ايضاً صدفة ؟

إبتسم .. " وقد ضاعت تساؤلاتى فى إبتسامته " ..

تركنى فجأة ورحل بخطوات واثقة وهادئة ، دون أن يتفوه بكلمة ..

يا له من مغرور ! .. ولكن إبتسامته ساحرة ..

خرجت من المشفى .. وجدته ينتظرنى بجوار سيارة فارهة أوقفها بجوار سيارتى التى وضع فوقها ملفاً مغلقاً ..

– سألنى بإبتسامة : هل كنتِ تبحثين عن تلك الأوراق ؟

إلتقطت منه الأوراق بلهفة ، وتفحصتها مندهشة ، إنها أوراق الفحص الخاصة بوالدتى ! .. كيف أخذتها من الطبيبة ، ولماذا ؟ .. ومن أنت ؟

ضحك بثقة .. ثم أخرج من سيارته روزنامة صغيرة كتب فيها رقم مد يده لأخذه .. قائلآ :

– أنا عادل زيدان .. وهذا رقمى ، إذا كانت لديكِ رغبة فى معرفة إجابات لتلك الأسئلة ، إتصلِ بى ..

ثم إلتقط الأوراق الخاصة به من بين يدى قائلآ : إن تلك الأوراق لى .. إنها مجرد فحص نصف شهرى أقوم به للإطمئنان على صحتى .. ثم إقترب من أذنى هامسآ بثقة :

– سوف أنتظر إتصالك الليلة .

أنهى كلماته القصيرة ورحل تاركآ خلفه نيراناً قد إشتعلت بقلبى ..

الساعات تمر مسرعة وانا أفكر هل يجب ان أهاتفه ؟.. كان تفكيرى مشوشآ ومشتتآ .. والفضول كاد يقتلنى .. يجب أن أجد إجابات لتلك التساؤلات التى أطاحت بعقلى كالإعصار .. والا ربما سأُصاب بالجنون ..

جلست خلف مكتبى أحاول أن أكتب جمل عشوائية خوفآ من الإستسلام لتفكيرى به .. ولكنى لم أستطيع أن أكتب حرفآ واحدآ .. إن هذا الرجل يسيطر على عقلى ! ..

إستقرت أفكارى أخيرآ أن أتحدث اليه .. ولكن كلما حاولت الإتصال به كنت أتراجع سريعآ .. فقد كان قلبى يخفق بشدة مع كل محاولة .. حتى إستجمعت شجاعتى وتحدثت اليه .. كان لصوته رنيناً مميزآ وهو يتحدث .. عرّفته بنفسى "صاحبة الأوراق الطبية " ولم أذكر إسمى .. حاولت أن أكون صارمة لأجد إجابة لتساؤلاتى وأنهى حديثنا سريعآ ، بينما هو فقد فاجأنى بضحكة ساخرة .. فسألته ممتعضة :

– لماذا تضحك ؟

. أجاب متصنعآ الجدية : لأننى فزت برهانى مع نفسى ، وكما توقعت سوف تتواصلين معى اليوم .

– ولماذا توقعت أن أتصل بك اليوم وليس فى يومآ آخر ؟!

– لا تحتاجين إجابة لسؤالك ، فأنتِ تعلمينها جيدآ .

حاولت أن أنهى سلسلة الألغاز التى يحاوطنى بها وسألته بتحدى .. لماذا إستلمت أوراقى الطبية ؟

– سوف أجيب على كل تساؤلاتك ولكن أحتاج منكِ أن تعدينى بشيئآ ما .

– وما هو ذلك الوعد ؟

– أن لا تكون تلك المحادثة هى الأخيرة بيننا ، ما رأيك فى ذلك ؟

إندهشـــت ، لماذا يطلب منى هذا الطلب ؟ .. وبماذا يجب ان أرد ؟ هل أوافق ؟ .. لكنى فى النهاية إستسلمت لما شعرت به فى تلك اللحظة .. فأنا أتوّق بشدة لمعرفة مَن يكون ولماذا يفعل كل هذا معى ! .. أخبرته بأننى أوافق ولكن بشرط أن يجيب على جميع تساؤلاتى ..

أجابنى ..لقد سـألت والدتك عندما كانت تنتظرك أمام المشـفى عن سـبب وقوفها .. فأجابته بما حدث معكم بكل تفاصـيله .. وأخذت انا الأوراق من الطبيبة وقمت بتبديلهم بالأوراق الخاصـة به ..

– ولكن كيف أخبرتك والدتى بتفاصيل زيارتنا للطبيبة وهى مريضة !

– لإنها فقط أخبرتنى بإسـمك (مريم) ولكنها شـردت .. هل هى حقآ والدتك ؟ .. إنها أخبرتنى فى بداية الحديث إنها لا تعرفك .. ولكنها تعرفك بإسم مريم !

– ليس من شأنك .. ولكن ولماذا فعلت كل هذا ؟ .

أجاب بثقة شديدة : لأننى أرغب فى التقرب منكِ .

– هل تعرف من أكون ؟!

– بل أرغب فى معرفة من تكونين .

– ولماذا ؟

– الن تكفين عن التراشق بالأسئلة ؟

– الن تجيبنى أنت عن التساؤلات التى بدأت تُحطم فضولى ؟

– لن تكون تلك المحادثة هى الأخيرة بيننا ، هل تتذكرين ما إتفقنا عليه ؟ .. سأجيبك على جميع تساؤلاتك لاحقآ .

أنتهى حديثنا وأنا أشعر بأن قلبى على وشك أن يُسرق منى ، فهو إقتحم عالمى الخاص وإستطاع بكل سهولة أن يثير بداخلى فضولآ ربما لم يستطيع شخص آخر أن يفعل مثله من قبل .. لم تكن تلك المحادثة هى الأخيرة بيننا .. فتوالت أحاديثنا عدة مرات .. وفى كل مرة كان يحاول بسلاسة أن يتوغل فى عالمى أكثر .. أين أعيش .. من تكون عائلتى ؟ .. كيف كانت طفولتى ؟ .. كان شديد الفضول فى أن يعرف كل شئ عنى سريعآ ، ولكننى كنت اتعمد التهرب من فضوله وسيل تساؤلاته ..

تسـائلت كثيراً لماذا أشـعر تجاهه بتلك المشـاعر المتضـاربة .. أعشـق سـماعه حين يتحدث ، ولكنى أخاف من فضـوله .. أعشـق نظراته لى ، ولكنى أتهرب منهما دائماً خوفاً من أن يلاحظ إعجابى الشـــديد بعينيه .. أعشـــق حديثه حين يخبرنى عن حياته ، ولكنى أخاف أن يتوغل هو بحياتى .. إنجذابى له غير متعمداً ، ولكن هناك ما يدفعنى نحوه .. وكأن شـــيئاً ما يدفعنى للمجهول .. أقف دائماً عاجزة عن إيجاد سبب لعدم قدرتى على الإبتعاد عنه .. أو أن أجد مبرراً لضعفى أمام تلك القوة التى تسلبنى إرادتى حين يتصل بى وأرد مسرعة متلهفة لسماع صوته .. ولكنى لم أجد سوى السير فى هذا التيار طواعية ولا أعرف ماذا ستكون نهايته ..

كانت أحاديثنا سطحية للغاية ، فقد كنت اتعمد عدم التحدث عن حياتى الماضية ولا عن حاضرى ولا حتى مســتقبلى ، بينما هو كان يحدثنى كثيراً عن حياته .. كيف مضـــت .. وكيف يشـــتاق لشـعور العائلة التى أفتقدها منذ قراره أن يواجه الحياة بمفرده بعيداً عنهم .. شـعرت بأنه يريد أن يقحمنى فى حياته .. فقد أصبح حديثنا شبه يومى .. أصبحت أعرف جيداً ماذا يحب وماذا يكره وما لونه المفضل .. برغم إختلافنا الذى بات واضحاً بشدة فى كل شئ ..

فى كل مقابلة لنا كان يأخذنى فى رحلة لعالمه الخاص أكثر ، بينما انا فكنت أستخدم الإختلافات بيننا دافعاً لى للسـيطرة على مشـاعرى تجاهه .. أحاول أن أضـع تلك الأختلافات بيننا كحاجز حتى لا يتقرب منى أكثر ..

– هل لاحظت بأننا مختلفان تماماً ؟

– الا تعلمين بأن للإختلاف لذة خاصة تجعلنا نغوص فى عوالم أخرى لم نكن نعلم عنها شئ ؟

– تُحب أنت الاغانى الغربية ، بينما أنا لا أحبها .. أعشق أنا اللون الأسود ، بينما انت لا تحبه .. تقحمنى انت دائمآ فى عالمك الخاص ،بينما انا لا أُفضـــل دخول الغرباء فى حياتى .. كيف لم يُشعرك هذا الإختلاف بغرابة وجودى فى حياتك ؟!

– أنا أرغب بوجودك فى حياتى بســـبب تلك الإختلافات .. حتى إن كنت لا أعرف شـــيئآ عن حياتك سوى إسمآ واحدآ فقط لكِ .

– ولماذا تحاول أن تقترب من المستحيل ؟

– ومن قال أنكِ من المستحيلات ؟

– وهل تشعر انت عكس ذلك ؟

ضحك .. لقد عُدتِ للتراشق بالإسئلة .

لقد عدت أنتَ للمراوغة وعدم إجابتى عن السبب الحقيقى الذى يدفعك للغوص فى عالمى !..

– ولماذا ترفضين السير مع هذا التيار الذى يحاول أن يجذبك نحوى ؟ .. أنا أرغب بأن يجذبنى هذا التيار إليكِ .. فكلما حاولتِ الســـير عكســـه كلما جذبنى هو اليكِ .. لا أعلم لماذا يفعل بنا هكذا ! ، ولكنى مثلك لا أســـتطيع مقاومته .. أشـــعر بأن قدرى يجبرنى أن تكونين انتِ عائلتى الوحيدة.

العائلة ! .. العائلة هى كل ما نمتلك فى تلك الحياة ، إذا كانت حقآ عائلة متماسكة ومترابطة .. حاولت جاهدة أن أجعل حديثنا عابرآ يخلو من العمق فى التفاصـيل .. كان يتعجب من تمسـكى بوضع حواجز بيننا لا يعرف أسبابها .. ويسألنى مرارآ :

لماذا لا يُثير فضولى معرفة من يكون ؟ .. كنت أحاول دائمآ بأن أخبره بإننا لسنا أكثر من كوننا أصدقاء ، او أقناعه بأن علاقتنا لا مُسمىَ لها ..

أخبرنى ذات يوم عن سؤال أحد أصدقائه له عن مكنون علاقتنا ، هل نحن عاشقان أم فقط أصدقاء ؟ .. كان سؤال صديقه كأنه باب من التساؤلات قد فُتح بعقله حول مشاعره نحوى .. وأضاء نورآ حول عتمة قلبه .. وربما جعله هو أيضآ يفهم أن تلك العلاقة لم تكن كباقى علاقاته السابقة ، وأنه سيكون مرغمآ على بذل مجهودآ عميقأ فيها ليصل الى قلبى .. ولكنه أيضآ حاول أن يستبعد تلك الأفكار ويقنع قلبه وعقله بأننى مجرد فتاة مختلفة عن جميع الفتيات اللواتى عرفهن .. "وإن هذا فقط ما يجذبه لى " .. كلانا أراد إنهاء معاناته مع هذا الحب ، ولكن لم تكن تلك الفكرة كافية لتقف أمام تلك القوة القدرية التى تجمع بيننا كلما أردنا الرحيل ..

لكنى كنت أكثر تمسكآ بالرحيل ، كانت قوة الماضى تلاحقنى أينما ذهبت بمشاعرى وعقلى .. وكلما حاولت الهروب من تيار تلك المشاعر ، كان يتمسك هو بى أكثر .. كان يستخدم الصبر طريقآ للوصول الى مبتغاه .. فكان حلمه الوحيد أن أستسلم له وأن أُكمل إمبراطوريته الخاصة التى بناها على أجساد النساء ، وأن أصبح واحدة من فتياته اللواتى جمعتهن به رغبته فى إمتلاكهن .. ولكن لم يكتمل حلمه بذلك فمن وضع طُعمآ لإصطياد فريسته ، لن يتوقع أن تصطاده الفريسة بلا تخطيط منها .. كان يُدرك بإنه هو من صنع اللعبة وفرضها علينا ، ولم يدرك بأن كلانا قد فُرض علينا هذا العشق .. لم يدرك بأنى وقعت فى عشقه منذ لقائنا الأول .. فقد كان أقوى من قوتى .. لقد هزمنى .. كان خصام يومان بسبب نقاش حاد دار بيننا درسآ قويآ لى لأتأكد بأننى وقعت فى عشق هذا الرجل .. أعشقه بطريقة لن يفهمها هو .. ولكننى لن

أســـتطيع الأعتراف بهذا الحب ، لن أجرؤ على ذلك بينى وبين نفســـى .. لن أؤمن به حتى لو إمتلأ كيانى كله به ..

***

تمنيت كثيراً بأن يعشـقنى أحدهم ويتمسـك بحبه لى .. فأنا إفتقدت الحب فى حياتى فباتت أمنية صعبة المنال بالنسبة لى .. حين باغتنى عادل بسؤال :

– هل يمكن ان تحبين رجلاً مثلى يوماً ؟

– مازحته .. وهل تســتطيع ان تعيش فى عالم العشـــاق ؟ .. إن رجلاً مثلك تنطبق عليه مقولة الفريد كابوس " الحب هو عدم حصـــول الرجل على ما يشـــتهيه " فأنت لا تعرف الحب وكيف يكون ألمهُ حين لا تستطيع إمتلاك ما ترغب فيه .

– ربما لم أشعر بالحب من قبل فعابرات الأسرة لا يُتقنن سوى لغة الجسد .. اما المشاعر ؟ فلا يعرفن كيف تكون ، وإذا أرادت إحداهن أن تربطنى بالحب فســـتكون مجرد تمثيلية هى بطلتها الوحيدة .. اما أنا لا تسـتهوينى الفنون الكاذبة ، ولكنى أدركت بأن هناك إمرأة كتبها القدر لى .. وأصبح قلبى مُعلقاً فى كلماتها ، بل فى إبتسامتها .. أعتقد بأنه معلقاً فى حكاياتها التى تسردها لى عن أشخاص لا تعرفهم الا فى خيالها ..

– ألم تتذوق العشق يوماً ؟

– أقرأ عنه فى الروايات .. أعيش تفاصيله فى كل رواية ومع كل بطل فيها كنت أتمنى أن أكون مثله .. ولاسيما إذا عشقهم أفلاطونيآ .

– إندهشت .. أفلاطونيآ ! .. كيف ترغب بحب أفلاطونى وللجسد فى حياتك لذة خاصة !

– ربما يكون الخمر والجنس والســجائر هم فقط تنفيس عن ما أعانى منه .. ولكنى بعد كل ليلة أمارس فيها إحدى المحرمات كنت أتألم أكثر من تلك اللذة .. أشعر بالضياع .

– مازحته : يبدو أن لك فلسفة خاصة فى الحياة .

– إبتسم .. هل يمكن أن تحبين رجلآ يشبهنى ؟

– ولماذا يشبهك أنت بالتحديد ؟

– رد مازحآ : لإننى رجل وسيم .

– بل نرجسى بإمتياز .

– ضحك : وليكن .. لكنى نرجسى وسيم .

ضحكنا بشدة .. ثم باغتنى بجدية قائلآ : هل يمكن أن تعين فى حب رجلآ مثلى يا مريم ؟

– لا أعلم شــيئآ عن الأقدار ، ولكنى وضــعت مئات الحواجز بينى وبين الرجال ، ولن أســمح لأحد بأن يقتحم عالمى الخاص ويتخطى تلك الحواجز .

– وماذا لو إستطعت أن أتخطى أنا تلك الحواجز ؟

– لا أظن ذلك ، فمن حاول قبلك ان يتخطاها فيجد نفســـه خارج حياتى قبل أن يُفكر حتى فى ذلك .

– إذآ ، سوف أتحداكِ على ذلك ، سأتخطاها وستحبينى يومآ .

– وماذا لو خَسرت ذلك التحدى؟

– لقد إعتدت على الإنتصـار ولم أخسـر شـيئآ يومآ ، فأنا على يقين أنكِ سـتكونين لى يومآ .. حينها إن وقع قلبك فى شِباك حُبى هل ستكونين أكثر شجاعة من قلبك وتعترفين بحُبك لى ؟

– إننى أعلم مسبقآ بأننى لن أحبك يومآ ، ولكننى قَبلت بالتحدى ، سوف أتحلى بالشجاعة حينها وأعترف لك بأننى أحببتك إن حدث ذلك .

تحدانى واثقآ فى قدرته على الوقوع بى فى عشقه ، وأن لم تستطيع أى فتاة النجاة منه .. وقَبلت أنا التحدى يقينآ بأن قلبى المتألم لن يُفتح لأحد حتى لو رغبت أنا بذلك .. بينما هو لم يكن تحَديه لى منذ تعارفنا سـوى رغبة فى إمتلاك جسـدى كباقى الفتيات ، ولكن المشـاعر أصـبحت بداخله أعمق من نزوة ليوم واحد .. ولكنه بات يعرف بأن الحب لا علاقة له برغبات الجســد "حتى وإن كان بداخلنا تلك الرغبة" ..

نحن لم نخطط أن نقع فى العشــق .. ولا أن تكون تلك الصــدفة التى جمعتنا هى بداية الطريق الذى لم نخطط لنهايته .. لكنه القدر عندما يضع قوانينه الخاصة ، لا يستطيع أحدآ تغييرها ..

لقد تغيرت قوانين اللعبة ووقع عادل فى الحب مرغماً ، ووقعت انا فى حبه بلا أمل ، هذا ما كنت أخاف منه .. أخاف من الوقوع فى حب مجهول .. لا أعلم كيف ستؤول بنا تلك المشاعر ، لكننا انجرفنا مع ذلك التيار ..

تسائلت عن تلك الأسرار التى دُفنت بداخلى .. هل سيحولها عشقى له لنور يضئ حياتى أم ستكون ناراً تحرقنى !.. فلطالما تهربت من فتح هذا الصندوق الأسود الذى أخفيه بداخلى .. صندوقاً يحتوى على ماضى مؤلم حاولت الهروب منه لسنوات طويلة .. ولكن عادل بشجاعته كان يمنعنى دائماً من الإنجراف خلف تيار الخوف .. يجبرنى على المضى قدماً معه .. فتوالت أحاديثنا .. يحاول فيها بكل الطرق ان أستسلم له ، ولكنه وجد نفسه يستسلم لى كطفل صغير لا يستطيع أن يبتعد عن حضن أمه من فرط تعلقه الفطرى بها .. بل أنا صديقته التى يسرد لها مُغامراته العاطفية وتفاصيل الليالى المُحرمة التى عاشها دون خجل .. لقد تخطت علاقتنا حدود المُسميات والشكليات التى كان يضعها مع كل النساء اللواتى تعامل معهن ..

ذات يوم مازحته مُتصنعة الجدية بأننى سوف أرحل لبلد أخر ، ويجب أن أوَدعه سريعاً قبل الرحيل .. لم أتوقع أن مُزاحى سوف يجعل دموعه تنهمر أمامى خوفاً من رحيلى عنه .. نظرت لدموعه بدهشة ..

تساءلت ، هل هذا هو نفس الرجل الذى تحدانى يوماً أن يوقع بى فى عشقه ! ..

لا أعلم كيف ومتى تحولنا الى عاشقان يشبهان أبطال الرويات ! .. لقد كانت قصتنا أشبه بكارما فهى مزيجاً من لذة العشق والعذاب .. لا يعلم كلانا لماذا تعّرف على الأخر ؟ ..

يشـبهنى عادل كثيراً فى عدم ثقته بالأخرين .. فلم يكن له الكثير من الأصـدقاء المقربون سـوى "آدم" صـــديقه الوحيد .. يعمل شـــرطياً ، ولكن برغم قســوة مهنته الا إنها لم تغيره كثيراً فقد كان ودوداً ، وحديثه بسيطاً .. فعندما قررت الإختفاء عن عادل ، لم أتوقع أن يبحث عنى بهذا الشكل الجنونى .. طلب من صـــــديقه آدم بأن يبحث عنى فى كل مكان .. وكانت مفاجأتى بأن آدم إستطاع معرفة اين أسكن بكل سهولة وأن محاولة إخفاء ماهيتى كانت فاشلة ..

حضـر لمنزلى متفائلاً وكأنه على يقين بأنه سـوف يقنعنى بالعودة لعادل .. ولكن كانت جلسـتنا صـامتة قرابة النصـف سـاعة .. ينظر هو حوله ويتفحص كل زاوية من زوايا المنزل الذى اعيش فيه .. يحاول ان يتعرف على الفتاة التى إســـتطاعت أن توقع عادل فى عشـــقها .. لقد بدا له منزلى متواضعاً بالمقارنة بباقى الفتيات اللواتى عرفهن عادل فكانوا من أبناء الأثرياء .. حاول أن يجد طريقة للتحدث معى ، لكنه لم يكن يعلم من أين يبدأ حديثه معى ، حاول إقناعى بالتحدث الى عادل قبل أن يخبره هو عن مكانى ..

– إنه يبحث عنكِ فى كل مكان ، يعلم بأن لا أحد سيجدك ، وأخبرنى بأنك من المستحيلات فى حياته ..

– لا تخبره عن مكانى فلن أكون انا سبباً فى سعادته التى يحلم بها ..

لقد أثار حديثى فضوله كثيراً.. وحاول معرفة سببه ولكن دون جدوى .. وبعد مرور ساعات من الجدال بيننا قرر أن يخبرنى بما يعانيه عادل بسبب إختفائى عنه ..

– لم أخبرك منذ الدقيقة الأولى أن عادل برغم عدم ثقته فى الأخرين وثق بكِ أنتِ .. حقاً لا أعلم ما هذا القدر من العشـق الذى جمع بينكما .. فأنا لم أتعود أن أرى صـديقى مهزوماً ومسـتسـلماً

هكذا من قبل .. إنه عشقك لدرجة لم يتحملها قلبه ، فصديقى الذى لم ترفضه إحدى النساء يوماً أنتِ اليوم ترفضين حُبه لكِ .. أرجو منكِ العودة له فهو يتألم كثيراً ..

صمتت وأنا أستمع لحديثه وانا احاول إخفاء إشَتياقي الشديد لعادل ، أو أن يكتشف كل هذا الألم بداخلى ، وبرغم أننى للحظة ضعفت لدرجة كانت أقرب للإستسلام بأن أطلب منه أن يخبر عادل بأننى حقاً أتألم كثيراً وأنا بعيدة عنه .. إلا اننى صمدت أمام ضعفى وحاولت التماسك أمام آدم ، وأمام رغبتى الشـــديدة فى العودة له .. وحاولت أن أبدو أكثر صـــرامة مما قد يخفيه قلبى وانا أتحدث معه..

حاولت أن أرسم على وجهى تعبيرات حادة ، لامبالية .. برغم ما أعانيه بداخلى ..

– ربما يشعر عادل بهذا الألم لأننى رفضته وهو لم يعتاد الرفض من قبل .. أعتقد أنه سيكون بحال أفضل بعد مدة قصيرة ، عندما يجد فتاة تناسبه ؛ فهو رجلاً لا تستهويه النساء العفيفات .. فمن تعَود على عشق الجسد ، لا يعرف كيف يكون عشق القلوب .. كانت كلماتى قاسية وكاذبة ، فأنا أعلم بأن كلانا يتألم ..

صَمَت آدم لثوانى وهو يُحدق بى ، ثم قال :

– إنك تعشقينه مثلما يعشقك تماماً !

نظرت له متعجبة ، ثم إستطرد قائلاً :لا تتعجبين يا عزيزتى فأنا أرى العشق يفيض من عينيكِ ، مثلما رأيته فى عيون عادل تماماً .. لقد بدا واضحاً لى أن لكما نفس النظرة حين تحاولون إخفاء مشاعركما ..

لهذا سوف أخبرك ما حدث بقلبه وحياته منذ أن دخلتى لعالمه وعشقك هكذا ..

اللوحة الثانية

– يكفى شرباً للخمراً اليوم يا عادل ! ، حالتك مُزرية .. لا اعلم لماذا تتألم كل هذا الألم ؟ .. لقد أصبحت ضائعاً منذ إختفائها عنك وكأنها سلبت منك عقلك .. من تكون تلك الفتاة لكى تتألم كل هذا الألم من إختفائها عنك ؟! .. إنها كباقى النساء ، كلهن متشابهات يا صديقى .. يجب عليك أن تنساها سريعاً .. وتذكَر أن هناك المئات من النساء يتمنين فقط أن تبادلهن إبتسامه عابرة ..

– أننى لست عادل الذى كان يعيش حياته لامبالياً بشئ مهما كانت أهميته يا آدم .. لقد أصبحت شخصاً آخر لا هوية له سوى أنه أصبح عاشق هربت منه حبيبته وأصبحت دواخله فارغة .. فلن تغير نبرتك الحادة معى شيئاً ، ولا تعنيفك لى حتى أقلل شرب الخمر وأنسى مريم ، لن يجبرنى شئ على نسيانها بتلك السهولة .. فقد وقعت فى هواها ..

ليتنى أستطيع نسيانها بتلك السهولة يا آدم ، إنها ليست مجرد تجربة كباقى تجاربى النسائية .. إنها لا تشبه أحداً من النساء ، ولا يجب أن تقارن بهن ..

عشقى لها لم يكن نزوة أو جسداً رغبت بإمتلاكه .. بل هى رواية تمنيت أن يكون نهايتها فقط زواجى منها ..

حين قابلتها للمرة الأولى صدفة ، وعندما أصطدمت بها ، نظرت لها متعجباً كيف مرت تلك الفتاة بجوارى دون أن تلتفت لى ! ، كيف لم تنجذب لى كما تفعل كل النساء معى ، إنها حتى لم

تنظر لى وكأنها لا ترانى .. لقد أثار ذلك غضـــبى كثيراً وقررت أن تكون تلك الفتاة لى ، كنت حينها معتقداً بأننى صـائداً محترفاً بالصـيد وأمتلك كل خبرات وأسـلحة الصـائد المحترف .. ربما كنت كذلك مع جميع النساء عدا مريم ..

لقد حاولت إصـطيادها فغرقت أنا فى بحر عشـقها .. وأنا على يقين أنها لم تخطط حتى لذلك .. فهى كانت تهرب من الوقوع فى عشـــقى منذ لقائنا الأول .. تهرب بكل ما أوتيت من قوة .. ولا أعلم لماذا ؟

ولكننى حاولت أن أبقيها معى ، حاولت أن أحل ألغازها ، وأن أتخيل كيف كان ماضـــيها .. هل كان ماضيها سيئاً للدرجة التى تجعلها تضع كل تلك الحواجز بينها وبين الرجال ! ..

على مدار عاماً كاملاً أحاول أن أضع بين أيديها كل الحلول التى ترضىَ بها لتتقبلنى كحبيب .. او حتى كزوج يرغب أن يقضى معها ما تبقى من حياته .

– كزوج ! .. هل قدمت لها عرضاً بالزواج يا عادل ؟

– نعم .. رغبت فى الزواج بها، بل أيضاً توسلت لها بأن لا ترفضنى .

– كيف فعلت ذلك ؟! .. إنك حتى لا تعرف من تكون تلك الفتاة!

– لا أعرف عنها ســوى أنها روحاً أخرى إحتلتنى .. ســلبت منى راحتى .. لقد إعتدت أن أقوم بكل أعمالى وهى معى ، تقاسمت معها أفكارى .. تقاسمت أسرار أخجل أن ارويها لغيرها .. لا أعرف حقاً ماذا فعَلَت بى لأعشـقها الى هذا الحد ! .. إنها ليسـت أكثر جمالاً ممن عرفتهن من الفتيات ، ولكنها زرعت بداخلى الأمل الذى إقتلعته عائلتى منى .. برغم ما بداخلها من ألم أكاد

أشــعر به كلما تحدثت معها .. كلماتها بها عُمق لا أســتطيع تفســيره .. تســتطيع عِناق ألآمي بســهولة .. تبقينى دائمآ راكضــآ خلف لغزآ احاول فك رموزه لأصــل اليها .. أتوق دائمآ لأتغلغل بداخلها واقرأ ما تخفيه عنى .. وأظل مشـــدوهآ اليها لأطفأ نيران كل الثورات التى خلَقتها بداخلى منذ عرفتها .. انها لم تمثل الحب يومآ لترضـــينى .. إنها حتى لم تبذل مجهودآ لتجذبنى إليها ، بل كانت دائمة التذمر ، وصعبة الإرضاء .. لم تفعل المستحيل كباقى النساء حتى أقع فى حبها ، بل كانت ترفض حديثنا فى بعض الأوقات عن الحب .. وكأن العشــق بالنســبة لها صــفحة أوراقها مُقطعة ومتناثرة فى الهواء بلمسة صغيرة من يديها ..

ذات يوم لقد أخبرتنى بأن الحب هو هبة ســماوية ، قد منحه الله فقط لبعض الأشــخاص الأنقياء على هذه الأرض ..

– سألتها متعجبآ : وهل نحن لسنا من هؤلاء الأنقياء؟ ..

– إبتسمت ، بل نحن أنقياء ولكن ليس بما يكفى ليمنحنا الله حبآ كالذى أعنيه ..

– وما هو نوع الحب الذى تعنيه ؟

– إنك ســتشــعر أنه عشــق من روح الله ، عشــقآ خاليآ من رغبات الجســد .. إن كنت محظوظآ ومنحك الله حبآ مثله ، ســتشــعر بأن هناك طاقة من الســماء قد أحدثت تغيرآ فى كل حياتك دون إرادتك ، ستجد كل ما حولك ممتلئآ بنورآ لا تعرف مصدره ، ستشعر بأن الله قَسم السعادة على تلك الأرض ومنحك أنت النصـــيب الأكبر منها .. ســـيكون حبيبك هو أنت .. فقط أنت .. الأشــتياق الذى ســتشــعر به فى غيابه ســيكون لذة حتى وأن أســماه الأخرين عذابآ .. لن يحمل مُسمى سوى انه حبآ من السماء ..

– وبرأيك من يستحقون ذلك الحب ؟

– يستحقونه من يريدهم الله فقط ، وليس من يسعون إليه .

– هل تعتقدين بأننى سأكون من هؤلاء الذين يستحقونه ؟

– أتمنى إن يمنحه الله لك يومآ ، وأن يحبك شريكك بنفس القدر .

كل ما أخبرتنى به مريم عن الحب قد جربته بكل تفاصيله الصغيرة ..إن حبها كطاقة من النور أضاءت طريقى وغيرت كل شئ فى حياتى .. علمتنى العشق ولم تُعلمنى كيف أنساها عندما ترحل عنى .. لم تخبرنى يومآ أن لهذا الحب ألمآ لن أستطيع أن أتحمله ..

لم أكن أعلم أنه سيأتى يومآ ما ويقتلنى غياب إمرأة عنى .. إمرأة لا أعرف عنها سوى إسمها وذكريات ترفض أن تخرج من عقلى وقلبى .. حتى حديثها العابر معى مازال محفورآ بذاكرتى .. مازلت أتذكر صوتها وهى تنادينى .. كلماتها القاسية حين تغضب منى ، وضحكتها البريئة حين أحاول أرضاؤها ..

حين قابلتها للمرة الأولى جذبتنى بنظرة واحدة عابرة ، وأثارت فضولى بلامبالاتها معى ، فخلقت بداخلى رغبة فى أن تكون واحدة من فتياتى ، كان هدفى الوحيد أن أوقعها فى حبى من أجل ليلة حميمية واحدة .. ولكن تغيرت بداخلى كل نيران الرغبات وتحولت إلى نيران من العشق .. فأصبحت تلك الفتاة هى كل ما أملك بهذا العالم ..

لثلاثون عاماً كنت أعتقد أن النساء خُلِقن لنستمتع معهن فى علاقات عابرة ، وليس هناك مُتعة أكثر من الخمر وممارسة الحب مع النساء .. ولكنها علمتنى أن هناك شيئآ يجعلنا أكثر سعادة

من هؤلاء .. وهو العشق .. فأنا لم أعشقها بل أدمنتها .. حتى اننى أدمنت إخبارها بأننى أخاف فقدانها .. تجمعت بها كل رغباتى وإدمانى .. هروبها الدائم من الإعتراف بحبها لى كان يجذبنى إليها ، تجذبنى رغبة مُلحة فى سـماع كلمة عشـق واحدة منها .. بل كان عشـقى لها يجرفنى كالتيار نحوها كلما حاولت هى الهروب منى..

إهتمامها بتفاصيلى الصغيرة كان يربطنى بها ، فأنا لم أتعود أن يهتم أحد بتفاصيلى مثلما كانت تفعل هى .. كانت تلاحظ أدقها وكأنها تحفظنى أكثر من نفسى ، وتلومنى على أخطاء إرتكبتها بقصد أو بغيره .. حتى تشبثت بعشقها وكأنها قطعة منى لا يجوز لها أن تتركنى .. بل عليها أن تحبنى .. تعشقنى انا فقط وللأبد .. هى مجبرة أن تحبنى ، مجبرة أن تهتم بى ، مجبرة أن تبقى لى وحدى .. كما أُجبرت أنا على عشقها .. ولكن كيف أجبر إمرأة قوية مثلها على ان تعشقنى ؟

إنها لا تعترف بالعشق وليس بها نقاط ضعف .. أعتقد أحياناً بأنها إمرأة فولاذية لا يستطيع أحد تحطيمها .. تستطيع هى ان تسبب اعنف الثورات بداخلى ، ولا استطيع انا حتى الأقتراب منها ..!

فى تلك المرة التى إختفت فيها ليومان متتاليان ، كنت اشـعر بأننى أقف على حافة هاوية لن ينقذنى منها سواها ، أبحث عنها فى كل مكان وانا لا أعرف أين تسكن ولا أين أجدها .. كانت فكرة إختفائها ترعبنى كثيراً كلما فكرت فيها ولكننى تلك المرة قررت أن انتقم منها ، ان أحطم كبريائها .. لم أكن أعلم بأن ما قررت فعله سـوف يؤلمنى انا ، فشـعورى بأننى لا أريد فى تلك الحياة سواها كان يؤلمنى .. يؤلمنى كثيراً .. لا اعرف كيف تقرأ أفكارى ! .. فكلما حاولت كسر

الحواجز التى تبنيها بيننا ، كلما كانت تبعتد عنى أكثر .. وكأن بداخلها قوة غير معلومة تسيطر على عقلى ..

إعتقدت بأن قضـــاء ليلة حميمية مع فتاة غيرها ســـيؤكد لى بأنها مجرد رغبة فى إمتلاك إمرأة صعبة المنال .. وإن كل ما أشعر به وهمآ صنعه عقلى بسبب إختلافها عن الأخريات .. ولكن ما زرَعَته هى بداخلى أعمق من أن تمحوه ليلة مع إمراة أخرى لا أعرفها ، فذلك الفراش الذى جمعنى بإمرأة غيرها لم يكن سوى أملآ أبرهن به لنفسى بأن لا وجود لمريم فى عقلى ولا قلبى .. ولكننى أخفقت فى إنتزاعها من داخلى ..

فلعبة النسيان لم تخُلق لعاشق مثلى .. فلعبة النسيان سلاح ذو حدين إما أن تنتصر عليه او يقتلك .. لم أتأهب لتلك اللعبة بما يكفى ولكنتى كنت أنوى أن انتصـــر انا عليها وأقتلعها من داخلى ..

كانت ســـاحة اللعب خاوية لى أنا وتلك الفتاة التى لم أعرف حتى إســـمها .. كانت تجهيزاتى الوحيدة للعب هى إحتضـــان تلك الفتاة وأنا ثمل تمامآ حتى لا أفكر فى مريم وأنا بين ذراعى تلك الفتاة .. ولكننى لم أنتصـــر فى اللعبة ولم أســـتطيع نســـيانها ، بل رأيت وجهها فى تلك الفتاة .. شـــممت رائحتها ولمســـت جســـدها هى .. أنها تعيش بداخلى واعلم جيدآ بأنها لم تكن هناك فتاة غيرها بين ذراعي .. بل أننى أصـــبحت ملكآ لها .. كما أخبرتنى تلك الفتاة بإننى همســـت بأســـم مريم حين عانقتها ..

سألتنى : كيف تضاجع إمرأة وانت تعشق إمرأة أخرى لهذا الحد ! .

أنكرت وجودها وكأننى احاول ان أثبت للفتاة بأن قلبى لن يعترف بالعشـــق ولم ينهزم امامه يومآ .. " ربما حاولت ان أثبت ذلك لنفسى " .

– انا رجل لم يخلق ليحب ، كلكن متشابهات ، لقد خلقتن فقط لنتمتع بإجسادكن .. فأنا لا أؤمن بما يُسمى بالعشق.

إبتسمت الفتاة ساخرة وكأنها تعلم بما أحاول أخفاؤه ..

– أتعلم بأنك لا يليق بك الكذب ؟! .. فأنت لم تعشـــق فقط ، بل أنت مقتول فى هواها .. هل فتاتك إسمها مريم ؟.

– كيف تعرفين من تكون ؟

لقد كنت تتفوه بإســـمها طوال الوقت دون وعى وانت تعانقنى .. كأنك تحاول عناقها هى .. لا أعلم إذا كان عناقك لها غضب منها أم شعورآ بالإطمئنان وأنت معها .. كانت لمستك لى عنيفة وكأنك تريد ان تؤلمها .. تؤلمها كثيرآ .. ولكنك برغم ما تعانيه من إشـتياق لها كنت ترسـل لها رسائل مشوشة تطالبها بالعودة لك .. فأصبحت لمستك لى بعنف تارة ، وتارة أخرى بفيضان من الحنان .. أتريدها جسآ مثلنا جميعآ ؟

ثورت .. إنها لا تشبهكن .. ولن تشبه إحداكن يومآ .. إنها قطعة قد إختزلت منى ويتعود لى .

لم تفلح جميع محاولاتى بإقناع نفســى بأن ما يربطنى بمريم فقط رغبة فى إمتلاكها .. وانا أعانق تلك المرأة ، لم أكن أرى أمامى سـوى مريم .. لقد خاننى قلبى وعقلى ورفضـا ان يكونا لغيرها .. غيابها يقتلنى وأبغض قلبى حينما يكون ضـعيفآ امام نسـيانها .. أحاول ان أقنع نفســى بأن عدم

وجودها لن يؤثر فى حياتى .. ولكننى أعود مرة أخرى للبحث عنها فى كل مكان ربما أجدها فيه ..

برغم مرور عام على لقائنا الأول ، وبرغم قربها منى لهذا الحد ، الا أنها كانت ترفض أن تُفصح عن هويتها معى .. تجبرنى دائماً على الرضوخ لرغبتها فى إخفاء ماهيتها..

لم أكن أعرف عنها سوى معلومات ضئيلة للغاية .. أعلم انها تعشق قراءة الروايات مثلى تماماً .. وأن روايتها المفضـــلة " كبرياء وهوى " تلك الرواية التى كنت أغار منها عندما أراها تحملها بداخل حقيبتها فى كل مكان تذهب إليه ..

أتعلم يا آدم ، بأن مريم تشـــبه أبطال تلك الروايات التى كنت أقرأ عنهم ليالىً طوال ، ولكننى لم أتخيل يوماً أن تكون هى إحداهن كبطلة فى رواية حياتى ..

حين أستمع لموسيقى بيتهوفن .. أبتسم .. أبتسم بشدة وكأننى أتلهف على ذكرى صغيرة منها .. حينما كنا نتشاجر كانت تسمعها بصخب لتجبرنى أن أخفض صوتى، كانت تثير جنونى حينها وهى تنظر لى بلامبالاة ، ولكنها تجبرنى ان أستسلم لها ضاحكاً .. أعتقدت أنها الوحيدة القادرة على أن تجعلنى أتألم وهى أيضاً من تستطيع إن تجعلنى أبتسم ، حتى أنها أصبحت تتحكم فى مزاجى ..

إن لها فلسفتها الخاصة فى كل شئ حتى أنها كانت تثير رغبتى دائماً بمعرفة ما يجول بعقلها ، تغرينى أفكارها ، فأحاول بكل الطرق تعرية عقلها لإخراج ما به من أفكار والإستمتاع بما فيه .. فبرغم أنها فتاة ثلاثينية ، الا أنها كانت تشـــعرنى دائماً بأنها إمرأة تبلغ من العمر المئات من

السـنوات .. فهى تمتلك من الحكمة ما يجعلها تتحدث بسـلاسـة فى السـياسـة والدين وتناقشـنى ببراعة فى جميع الروايات العالمية ، إنها تحفظهم جيداً ..

عندما كانت تسـرد لى بعض الروايات التى لم اسـمع عنها سـابقاً ، كانت تأخذنى معها فى رحلة ممتعة بداخل عقلها وكأن تلك الروايات من نسـج خيالها هى .. كنت أشـعر بأنها أديبة تنصـلت من الأدب وتركت عالم الأدباء خلفها وهربت .. ولكننى كنت أتعرف على العالم من خلال عقلها وقلبها .. وأتعلم كل شئ فى الحياة من فلسفتها الخاصة التى لا أعلم ما سرها ..

كانت تعارفنا مجرد تحدى بأن أفعل المسـتحيل لتقع فى عشـقى كرجلاً إسـتباح أجسـاد النسـاء .. فوقعت انا مرغماً فى هواها ، على الرغم أنها لا تبذل جهداً فى التقرب منى .. بل تهرب دائماً وتجعلنى أقف امام مجهول .. حاجزاً الصـمت والأسـرار الذى تضـعه بيننا دوماً يخيفنى أحياناً ولكنه يغرينى كثيراً .. لا اعلم الى أين سنؤول معاً ، ولكنى عشقت المجهول معها ..

كانت تطلب منى دائماً الا اتوغل فى عالمها الخاص خوفاً من أن نجد أنفسـنا فى طريق لا نعلم نهايته .. لكننى كنت أتمسـك بها أكثر وعشـقى لها يجبرنى أن أخوض من أجلها الآف المعارك .. بداخلى رغبة قوية فى معرفة السـر الذى تخفيه عنى .. ذلك السـر الذى كان يجبرها على الهروب منى خوفاً من أن أعرفه .. كانت تزداد عناداً وغموضـاً معى كلما وقعت فى حبها أكثر .. وكلما حاولت أن أساعدها على تخطى الألم الذى ألمحه دائماً بعينيها وأسمع أنينه فى كلماتها المبحوحة .. كلما شعرت هى بأننى نقضت عهدى معها بألا أحاول إقتحام حياتها ..

ليتها تتذكر عندما كانت تمازحنى "بأنها جيشى الوحيد فى هذا العالم "..

اليوم أنا عُدت يتيمآ بدونها .. بداخلى طوفان من التســـاؤلات .. ليتنى اعلم من تكون ؟، او ما كانت تخفيه عنى ؟.. او أعلم ما الذى أجبرها على الرحيل !.. أو ربما عادت لوطنها ! ..

حين طلبت منى مريم منى العودة الى بيت عائلتى ، كانت تصـــف العائلة بأنها وطننا الذى لا يجب ان نغيب عنه طويلآ ، والأمان الذى أفتقده وبسـببه أشـعر بالضـياع .. ولكنها لم تكن تعلم بأنها الوحيدة القادرة على ان تمنحنى الأمان .. لا تعلم بأنى أيضـــآ أخفى عنها الكثير من الآلام .. أتمنى لو إمتلكت الشـــجاعة لأخبرها عن عائلتى التى تركتها ولن أعود إليها .. أســـرد لها قصـص والدتى التى خسـرت عملى كطبيب بسـببها .. كيف كنت سـأخبرها بأن العائلة هى من حولت طبيبآ مجتهد بعمله الى رجلآ خاويآ من كل شئ حتى المشاعر ..

تركتنى مريم ببســـاطـه حتى أعود لوطنى الذى لم يكن يومآ امانآ لى .. لقد ظننت ان عملى كطبيب سوف يكون طوق النجاة من تلك الذكريات التى تحاصر عقلى منذ طفولتى .. فقد تركت طفلى الداخلى يعانى ويتذكر كل ما مر به .. فطفلآ فى عمر العشـــر ســـنوات لن يفهم لماذا صفعت والدته سائقآ أخفق فقط فى تنظيف سيارتها .. مازلت اتسائل كيف فعلت هذا أمام عينى ولم تكترث لمشاعرى ! .. كيف تصفع رجلآ فى الأربعين من عمره أمام طفلآ ولم تكترث لمشاعره .. !

ظلت تلك الحادثة مسيطرة على عقلى كلما صعدت تلك السيارة معه وقادها وانا أجلس بالخلف ، كنت أنظر له طويلآ واتســائل : لماذا لم يترك العمل بعد ما فعلته والدتى معه ! .. حينها قررت ان اسألها مستجمعآ شجاعتى ..

– كيف تصفعين رجلآ فى هذا السن هكذا بلا رحمة ؟

لم تفهم فى بداية الأمر ما أعنيه ، او ربما تناســت ما فعلته وكأنه شــيئآ عاديآ .. ثم فهمت ما أعنيه .. تغيرت ملامح وجهها وبدت حاده ..

– وما الذى يعنيك فى هذا يا عادل ؟ .. إنك مازلت طفلآ صغيرآ لن تفهم سبب تلك الصفعة .

– لكنى سأفهم ، ويجب أن تخبرينى عن السبب .

ردت بحدة .. حتى لا يتطاول علينا مرة أخرى ، ويجب أن يرد على سؤالى وهو مطأطأ رأسه ولا ينظر بعينى .

– ولكنه أب لثلاثة أبناء ، وأنتى صفعتيه أمامى .. كيف سينظر فى عين أبنائه بعد ذلك دون أن يشعر بالدونية أمامهم ؟

– لو شــعر بالخجل ، لكان ترك العمل حينها دون تردد .. ولكن هؤلاء الفئة من البشــر يلهثون خلف المال دون الإكتراث لكرامتهم مثلما تعتقد .

كلماتها كانت كالصـاعقة على عقلى من شـدة غرابتها .. كيف تفكر أمى بأننا مختلفون عن بقية البشـر ! .. كيف تفكر بأن هذا الرجل يلهث خلف المال لمجرد سـعيه خلف رزق ابنائه ! ،.. هذا الحديث الذى قالته أمى بلامبالاة ، لم يكن تأثيره علىّ مؤقتآ ، بل أصـبحت نظرتى "للعم سـعيد" مختلفة ..

أصــبحت أنظر إليه وكأنه شــخصــآ يجب أن أعامله بإحترام أكثر مما كنت .. كنت أتعمد أن أجلس بجواره فى السيارة وقت عودتى من المدرسة الثانوية .. أتحدث إليه كثيرآ وأسأله عن أبناءه وعن أحوالهم .. كـان تقربى منـه يزعج والـدتى كثيرآ ، ولكنى كنـت ازيـد قربى منـه أكثر كلمـا

ازعجها هى هذا .. لا أعلم هل تصـرفى معها صـحيحيآ أم لا .. ولكنى لاشـعورياً كنت أحاول تعويض العم سعيد عن ما فعلته والدتى معه منذ سنوات .. ولكن أمى كانت أكثر عِناداً منى .. لقد قررت طرد العم سعيد من القصر كله بحجة انه أصبح كهلا لا يستطيع العمل .. وعينت سائقآ خاصآ لى ظللت لقرابة العامين لا أعرف ما هو أسمه .. لم تكن تروقنى الفكرة حينها ، ولكنى رضخت لأوامرها مُرغماً .. ولكن قرارها لم يغير شئ بينى وبين العم سعيد ، بل زاد قربى منه أكثر وأصبح حديثنا أكثر عمقآ .. وأصبح أبنائه رفقاء لى وكأنهم أصبحوا عائلتى .. شعرت معهم بدفء العائلة ، والترابط بينهم قوياً برغم قلة مواردهم .. أوقاتى معهم هى الشئ الوحيد الذى يشعرنى بالسعادة .. ولكن القدر أحياناً يُبدل أحوال ما نعيشه فى لمح البصر دون حساب لما سوف نُعانى منه بعدها .. أصاب العم سعيد مرضآ نادراً أجبره على التقاعد من العمل .. ولكن ظروفه المعيشية كانت أقوى من مرضه فأجبرته على العودة للعمل لدى والدتى مرة أخرى وهو مريض .. حاجته للمال كانت أقوى من مرضه ، ولم يكن امامه طريقآ سوى طلب أموال من والدتى لسد نفقات الأطباء والأدوية .. ولكنها رفضت ونهرته للمرة الثانية أمامى ..

– ومن أنت لتطلب أموالاً منى .. أنت مطرود من عملك ؟

– لقد بحثت طويلاً ولم أجد من يقرضنى اموالاً لقضاء دينى وسد حاجات ابنائى .. لقد عملت معكم منذ عشر اعوام ولم اطلب يوماً منحة او قرض ، كنت أكتفى براتبى الضئيل فقط .. ارجوكى سيدتى اقرضينى اموالاً أحتاجها بشدة .. أو أقبلينى كخادم للعمل فى قصرك فأنا بحاجة للعمل .

– الا ترى وجهك فى المرآة .. أنت رجلآ ميتآ وترغب بالعمل هنا ! .. من يقبل رجلآ يكاد يتنفس بصعوبة كخادمآ .. يجب أن تخرج من قصرى ولا تعود مرة أخرى ..

عاد العم سـعيد لمنزله ذلك اليوم يشـعر بالحسـرة ويعانى من ألم شـديد فى الصـدر .. لم يكمل حياته لليوم التالى وفارق تلك الحياة القاســـية .. وفاته لم تكن حدثآ عاديآ فى حياتى ، بل كان السبب الرئيسى لرؤية حقيقة والدتى .. المال كل شئ ، المال يصنع كل شئ ، المال يشترى كل شـئ ، نحن بدون المال لا شـئ .. هكذا كانت تفكر دائمآ .. بينما انا ؟ فكنت أعلم بأن المال لا يشترى السعادة ، لا يستطيع خلق الترابط بين أفراد العائلة الواحدة ، لن يمنع مريضآ من الموت .. فقررت ان تكون دراســة الطب ســلاحآ أحارب به المرض من أجل العم ســعيد .. إنه منحنى شعورآ بالقوة لأصل لهدفى ..

بالطبع لم تروق فكرة دراســة الطب لأمى حينها ، فهى لطالما كانت تحلم بأن أدرس المحاســبة لأستلم أعمال العائلة ، ولكن قرارى كان حاسمآ ولن أغيره من أجلها ، إنه وعدى للعم سعيد يوم وفاته .. بأن تكون دراسـة الطب من أجله هو وكل مريض يتألم ولا يمتلك مالآ لعلاجه .. شـنت أمى حربآ من أجل عدم إلتحاقى بكلية الطب .. ولكن فى نهاية الأمر إلتحقت بها ، ربما كانت ترى ان مصـلحتى ومصـلحة العائلة تكمن فى دراسـتى للمحاسـبة ، وانها كانت أنسـب لعملى بشركات العائلة الضخمة ، وأكون جديرآ بإستلام تلك الثروة الكبيرة .. ولكن لم يجبرها تصـميمى على قرارى من الإستسـلام لرغبتى ، فكانت فى نهاية سـنوات دراسـتى قد قررت بأن تحرمنى من العمل كطبيب .. لأن عملى كطبيب فى إحدى المسـتشـفيات الحكومية عارآ على عائلتها العريقة حسب قولها ..

– كيف تعمل فى مشفى حكومى ولنا فى كل مشفى خاص طبيباً من عائلتنا ؟ .. يجب عليك أن تترك العمل فى تلك المشفى فى وقت قريب والا ستكون عاقبة قرارك صعب ان تتحملها .

– وماذا سأخسر بعد خساراتى الكثيرة ؟

– وهل أمثالك يعرفون ما هو مذاق الخسارة ؟ .. إنك شاباً ثرياً نشأ فى قصر من قصور الملوك .. ينفق الألاف من الدولارات شهرياً على ملابسه التى يتسوقها من الخارج .. يمتلك سيارة فارهة يقودها بين أصدقائه فخوراً بها .. ماذا خسرت إذاً ؟!

– خَسِـرتك أنتِ كأم كان يجب عليكِ أن تحققين لى رغباتى ولا تكونين ضـدها .. خسـرت العم سـعيد الذى كان بمثابة أباً لى وتوفى متأثراً بحديثك عن مرضـه وفقره .. خسـرت عائلته التى فتحت أبوابها لى وإحتوتنى وقت حاجتى لعائلة .. أنا خسـرت كل شـئ أمتلكه بسـببك أنتِ .. ولذلك قررت ان لا أخذل مرضى لا يملكون المال بسببك أنتِ .

– إذاً فأنت سوف تتحمل قرارك .

برغم رد أمى الذى بدا مختصـراً ونظرتها التى كانت شـديدة الحدة ، وكأنها تلمح لشـيئاً سـوف يحدث ، الا أننى لم أتوقع أنها سوف تسلب منى كل أحلامى بدون تردد ..

***

تلك الليلة الشديدة البرودة كان ميعاد مناوبتى بالمشفى .. كانت ليلة هادئة تماماً حينها .. خرجت من غرفتى لأتفقد الغرف جيداً قبل العودة لأخذ قيلولة لدقائق .. كان جميع المرضـــى فى حالة إســـتقرار ، والعاملين باقون فى غرفهم يحاولون التدفأة من شـــدة البرد .. عُدت لغرفتى أحاول مقاومة شعورى بالنوم .. حتى أنقذنى العامل بالقهوة وهو يبتسم ..

– توقيتاً مميزاً للقهوة يا محمد ، ولكن كيف عرفت بأننى أحتاج إليها الآن ؟!

– أعلم بأنك يجب الا تنام من أجل ذلك المريض الذى يتلقى علاج التنفس .

– نعم ، يجب ان لا أنام ، لأنه يحتاج لأن أتابع حالته بعد ساعة .

كانت تلك الليلة هى آخر ليلة عمل لى بالمشفى .. لا أعلم كيف غفوت ! .. او كيف حدث ذلك ! .. مرت ســاعات وأنا أمكث فى عالم آخر لا اعلم شــيئاً عن ما ســأواجهه .. إســتيقظت من غفوتى وجدت مدير المشــفى يقف أمامى وينظر لى بغرابة وكأنه يحاول فهم ما أصــابنى حتى غفوت كل تلك الساعات ! .. يحدثنى بحدة ..

– لقد توفى مريضـــك يا عادل .. ذلك المريض الذى كان من واجبك الحفاظ على حياته .. هل كان نومك مقصوداً ؟!

– كان ردى يشبه طفل يتلعثم فى حديثه عن موضوع يسبق عمره بأعوام .. كيف توفى المريض ! .. هل نمت كثيراً ؟ .. لا اعلم كيف نمت كل تلك الســاعات ســيدى ! .. هناك شــيئاً غريباً قد حدث معى ، أؤكد لك ذلك .

كان مديرى محقآ فى ما قاله عن خيانتى لمهنتى .. نعم ، انها ليست حادثة عادية بل كان حدثآ مدبرآ .. لقد كنت سببآ فى وفاة مريضآ ليس له ذنب سوى إهمالى بالعمل والنوم وقت عملى .. هكذا كانت آخر كلمات نعتنى بها زملائى قبل ان يتم توقيفى عن العمل كطبيب .. خرجت من المشفى متسائلآ كيف حدث ذلك ؟!

لم يكن أمامى سوى البحث عن السبب .. تمنيت ان لا أعرف السبب ، ليتنى لم أعرف بأن أمى فعلتها لتعاقبتى وتجبرنى لكى أتحمل قرارى كما أخبرتنى فى آخر حديث بيننا .. ولكنها أجبرتنى عن الرحيل عن القصر ، ذلك القصر الذى إعتقدت أمى بأنه سيكون أقصى خساراتى ، ولكنها لا تعلم بأنها سوف تجبرنى أن أكون شخصآ آخر تتمنى يومآ بأن يعود طبيبآ ..

لقد تحولت حياتى بعد أن كنت طبيب يحترمه زملائه ويقدرون عمله بمشفى حكومى رغم قدرته على العمل بأكبر المستشفيات ، وأصبحت فى نظر عائلتى وأصدقائى والعابرون فى حياتى شابآ ثريآ مدللآ يعيش ليله متنقلآ بين النوادى الليلية ويخرج وفى نهاية سهرته وبجواره فتاة لا يعرفها مسبقآ ، يمارس معها كل أنواع الفجور ، وترحل صباحآ وهو نائم .. هكذا كان يعتقد بأنه ينتقم لنفسه من والدته وعائلتها الأرستقراطية .. ربما نجح فى إنتقامه ، وجعل حياة والدته جحيمآ بالبحث عنه ليل نهار فى كل مكان .. تلهث خلفه خوفآ من أن يصيبه مكروهآ بسبب تصرفاته .. لكنه بالمقابل خسر روحه .. أصبح عبارة عن جسد فقط يتحد مع أجساد النساء ليعيش متعة مؤقتة تنتهى حين يستيقظ وينظر لنفسه فى المرآة ويرى رجلآ قد تغيرت ملامحه لشخصآ يشمئز مما فعله ليلآ .. أصبح رجلآ هوايته صيد النساء ولاسيما أصعبهن فتلك أصبحت لعبته المفضلة التى يخطط لها أصعب الخطط ويركض خلفها ويدفع الكثير من الأموال من أجل إيقاعها فى شباكه ، حتى تقع فريسته ثم يتركها لتواجه مصيرآ لا دخل له به .. لم تزلزل كيانه يومآ دموع

أنثى تستجديه ليمنحها سترآ ، ولم تُضعفه دموع أنثى تلهث خلفه ليقع فى عشقها .. بل كلهن أجسادآ يتمتع بهن ويتركهن لمصيرهن المحتوم .. هكذا كانت حياته قبل أن تدخل مريم الى قلبه وتستوطنه .. لقد إستطاعت أن تعيده للحياة مرة أخرى .. أن تمنحه روحآ ليعيش بها .. أعادت له ضميره ليتذكر كل ما فعله مع الأخريات .. بل حتى إنه يتمنى أن تقبل مشاركته ذلك الألم ، وكأنه يريد أن تحمل معه ذنوبآ إقترفها هو ، أو تساعده على تخطيها .. ربما ثقته فى قوتها على تخطى الألم كانت طوق نجاة له .. ولكنه وجد نفسه فجأة أمام عشق ظاهره جنة يتمنى أن يعيش بها ، وفى باطنه إجتمع كل أنواع الألم ..

إن عشقها أقوى من الإعصار وأصعب من البركان الذى يحطم كل شئ دون رحمة .. لقد أصبحت عاجزآ أمام قوة ذلك العشق ، لا أستطيع العودة كما كنت رجلآ شهوانيآ لا يعترف بالحب ، ولا أستطيع الإقتراب منها كحبيبة .. إنها تشبه الحلم تمامآ .. أتمنى أن ألمسها بيدى ، ولكنها تتبخر فى دقائق بمجرد أن أستيقظ من غفوتى ..

علمتنى بأن الحب يجب أن يكون عذريآ فى بدايته .. فالحب هو هبة سماوية ، وليس فى السماء عشقآ للجسد .. حتى أصبحت متيقنآ بأننى أحببت روحآ وليس جسدآ ، تعلقت بما تعلمته منها وبتأثيرها على عقلى الذى جعلنى أرى العالم بعينيها هى .. عالم ليس به الا الأنقياء من البشر .. لا أعلم كيف إستطاعت أن تشعرنى بذلك ! ، فأنا أعلم جيدآ بأن ليس كل البشر أنقياء ، وأعلم أيضآ بأنها ربما تألمت من البشر .. ولكنها لم تكن ترغب سوى بأن تشعرنى بذلك .. وكأنها إمرأة خلقت من نور يضئ كل شئ تراه بعينيها .. إستطاعت ان تسكن بداخلى ، وأن أعيش بروحها التى أخرجتنى من رحم الألم بسهولة .. أصبحت رجلآ ينتمى لها هى فقط ولا يعرف فى هذا العالم الكبير غيرها ، يبحث عنها بكل مكان لتعود روحه مرة أخرى الى جسده ..

اللوحة الثالثة

ينتمى كلآ منا الى وطن .. وطن يتحدث بلغته ، ويعتنق ديانة سـائدة فيه ، ويشـارك فى ثوراته حين يثور شعبه .. بينما أنا لا أنتمى الا لدواخلى .. لا أعلم عن الأوطان شيئآ غير ما أشعر به .. ما يبكينى وما يسعدنى .. لم أكن أعتنق غير ديانة والدى الذى لم أشعر بأنه وطنى بل وطن فرض عليّ أن أنتمى لـه .. لم أتوقع بـأن يحدث أن يتحد قلبى وعقلى ودواخلى ويعلنوا إنتمـائهم لغيرى .. أن يعلنوا عصيانهم على جسدى ويثوروا من أجل العشق .. أن يعلنوا إنتمائهم لعادل .. كلانا أعلن إنتمائه للآخر .. ولكن عادل كان أكثر شـجاعة فقد أعلن إنتمائه لى .. أنه أعتنقنى كعبادة وعشق .. أما أنا فقد كنت أعاند كيانى .. أثور ضده وأشن حربآ ضد نفسى .. ضد قلبى وروحى التى أعتنقته .. أهرب من دواخلى حتى لا تخوننى وتعلن له بعشـقى له .. أن أربط قلبى بمجهول لا أعلم الى أين سيؤول بى .. قتلت عشقى وأجبرت عادل على خسارتى ..

حين أخبرنى آدم بما يشـعر به عادل من ألم ، أظهرت له لامبالاة مصـطنعة خوفآ من أن أعود إليه .. خوفآ عليه من المجهول .. فباتت رواياتى التى أكتبها هى الأمل .. النور الذى يضـــئ عتمة حياتى .. أشارك أبطالها آلآمهم .. أشعر معهم بلذة العشق التى تسعدهم وألم الفراق الذى يبكيهم ..

.. إتصلت بى صديقتى وفاء من دار النشر تطلب منى أن أقابلها .. إنها رفيقة دربي وشريكة آلآمي .. آلآمي التى حاولت إخفاءها عن الجميع حتى عن نفســـى ، فمجرد الحديث عن تلك الآلام يزيدها مرارة بداخلى .. رافقتنى أيضـآ سـنوات الدراسـة الجامعية وحتى تلك اللحظة ، فهى الوحيدة التى عاشـــت ما بداخلى من ألم دون أن أتحدث عنه .. علمت عن حياتى القليل من المعلومات ولكنها إكتفت بما تعرفه عنى وأرادت أن نكون سـنداً لبعضـنا البعض .. حتى بعد أن تزوجت وأنجبت طفلاها .. إستمرت معى كرفيقة الدرب ، وأصـبحت لى عائلتى التى فارقتها منذ سنوات طويلة ..

كان يوم الجمعة حين إتصلت بى وفاء هو عطلة دار النشر ، فأنتابنى الفضـول برغم لامبالاتى التى تعَوَد عليها جميع من تعاملت معهم بالدار .. فأنا بنظرهم تلك الشخصية التى لا تهتم بكبائر الأمور ولا بأصغرها ، ولكن إنتابنى الفضول لتلك المكالمة ، برغم أن طلبها منى أن أقابلها هناك ، وصـــوتها أيضـــآ لم يكن يســـتدعى القلق عليها ولكن إنتابنى الخوف من أن يكون حدث لها مكروهآ ..

ذهبت للدار مسرعة وأنا مشتتة الأفكار .. وكل ما يهمنى هو أن تكون صديقتى بخير .. وجدت إجتماعآ طارئآ يرأسه "السيد رياض" مدير الدار وصديقتى وفاء التى قابلتنى بنظرات يملؤها التوتر والتساؤل .. وإثنان من العاملين بالمطبعة ..

نظرت لهم متسائلة ، ماذا حدث ؟ .. ولكنى برغم نظراتهم التى يملؤها التوتر مازحتهم كعادتى :

– ماذا حدث لكم يا رفاق ، اليس اليوم عطلة ؟

أجابتنى وفاء وهى تحاول أن تخفى توترها عنى :

– كان يومآ طويلآ يا مريم .. فالدار كانت ممتلئة اليوم بالصـحفيين الذين يرغبون فى معرفة من هى الكاتبة التى يُرمز اليها بالحرفين (م . ح) ويُكتب إسمها على غلاف الروايات الأكثر مبيعآ فى السـنوات الماضـية ؟ .. والجميع يرغب فى معرفة سـر كتابة تلك الحروف من أسـمك على الكتب التى يتحدث الجميع عن نجاحها .. وجميعنا لا نعلم كيف نرد على أسئلتهم ؟ .. ولا نعرف ماذا علينا أن نفعل ؟..

– قاطعها السـيد رياض ممتعضـآ وهو ينظر نحوى .. إسـمعينى جيدآ يا مريم ، أنا وعدتك منذ تعارفنا منذ سـنوات أن لا أبوح لأحد بأى معلومة تتعلق بكِ ، وبرغم غموضـك الشـديد فى إخفاء شـخصـيتك إلا أننى عاهدتك بأن لا يعرف أحدآ مَن تكون كاتبة تلك الروايات التى يتحدث عنها الجميع حتى تسـمحين لى أنتِ بذلك .. وحتى الأن لم أحاول أن اسـألك عن سـبب إخفاء شخصيتك عن الناس .. ولا اعلم لماذا لا ترغبين فى إظهار شخصيتك لهم ، فالغريب ان العديد من الشباب الموهوبين غيرك يتمنون ان يعيشوا بين الناس كالمشاهير ويشعرون بنجاحهم !..

– سـألته بغير إهتمام ، وما الجديد الذى حدث ليأتى الصـحفيون الى هنا ؟ .. فروايتى الجديدة لم تصدر بعد !

– إنـه كتابـك الأخير يـا مريم .. أنتى تعلمين ان الجميع يتحدث عنـه ، فقد خُلقت حالـة من التسـاؤل عن كاتبته .. فالجميع لاحظ وجود نفس حرفين إسـمك عليه .. وربط الجميع بين كاتبة الروايات السابقة وكتابك .. ونحن نحاول منذ نجاح كتابك الأول أن نتهرب من الصحفيون الذين يأتون الى هنا بعد إصـدار كل كتاب جديد لكِ .. ألم يحين وقت ظهورك للناس ؟ .. الم يحين الوقت لتكتبى إسمك كاملآ على أغلفة كتبك ؟ ويعرف الناس من تكونين ؟!

جلست وانا اتنهد .. كان الجميع ينظرون نحوى منتظرين إجابة على تساؤلاتهم ، بينما أنا تركتهم بخيالى وذهبت حيث كان هناك كثير من الذكريات تجول بعقلى .. أحاول أن أجد حلآ لمشـــكلة لم أحسب لها يومآ .. كيف سأعلن هويتى ومنها سيعرف عادل من أكون ؟ .. كم عامآ مضـى وانا أســتتر خلف حروف مموهة لإســمآ وهميآ .. أتوارى عن الناس خلف كتبآ أكتبها محاولة أن أمحو بها ألامآ بداخلى أو أثبت بها لنفسى أننى مازلت على قيد الحياة ، أحاول نسيان ماضـى اعلم جيدآ انه لن يمحوه حِبرآ على ورق .. لقد أخفق من أخبرنا أن الكتابة تزيل الهموم ، ولكن لا يعلمون بأن ذكريات كالسُـم الذى يقتلنا ببطأ .. فأنا ليس بيدى حيلة ســوى أن أكتب حرفان فقط من إسمى على أغلفة كتب هى الأشهر بنظر الجميع فيما عدا انا .. فالكتب بالنسبة لى هى فقط أحلامآ أتمنى أن أعيشـــها .. فكم بطلآ لروايتى أحببت أن أقابله بحياتى .. وكم بطلآ تمنيت أن أذوب فيه عشـقآ من فرط حبى له وانا أكتب عنه .. وسـيظل خيالآ أتمنى أن أعيشــه ولكننى لن أعيشه يومآ .. فأنا خُلقت لأكتب وليس لأعيش ..

لقد كان حديث السيد رياض حادآ وحاسمآ لدرجة أنه طلب منى أن أعطيه قرارآ سريعآ فى ذلك .. وأجبرته الظروف للمرة الأولى منذ تعارفنا فى أن يخيرنى بين إعلان هويتى للجميع وبين إنهاء ما بيننا من عقود ..

كانت وفاء تراقبنى بصــمت تنظر نحوى بين الفينة والأخرى ، وتنتظر ردى على حديثها الذى لم أســـمع منه حرفآ ونحن فى طريق العودة للمنزل .. لقد كنت غارقة فى بحر من الأفكار التى إمتزجت بالقلق .. لم أتخيل أننى ســـأكون مجبرة أن اعلن عن هويتى يومآ ما .. ماذا يجب ان افعل مع السيد رياض ؟.. ذلك الرجل ذو العقد السادس من عمره ، الذى يعرفه الجميع بشخصيته القوية التى يحسب لها الجميع حساب .. وبأن قراره لا يغيره مهما كانت النتائج او الخسائر ..

لم يكن السيد رياض مجرد صاحب دار نشر يتعامل مع كاتبة مشهورة .. بل كان الأب الروحى لفتاة فى منتصف العشرينات من عمرها ، تبنىّ موهبتها دون تردد عندما قابلته للمرة الأولى بوجه شاحب خوفآ من رفضه لما تكتبه .. فَمَن ذلك الذى سيتقبل شابة لم يصدر لها عملآ من قبل ؟ .. ولكنه كان أكثر جرأة من غيره ولم يفعل كما يفعل الآخرون من أصحاب دور النشر .. فهو لم يتقبل كتاباتى عندما أصبحت كاتبة مشهورة ، بل آمن بموهبتى عندما كانت أكثر دور النشر ترفض التعامل مع الكُتاب الجدد .. وإستمر على عهده معى حتى النهاية .. فكيف لى أن أضعه موضع شك من الصحافة والإعلام .. وأن أتركه معرضآ لإتهاماتهم له بسرقة كتابات بعض الشباب الغير معروف هويتهم وطباعتها بحروف لشخص غير معروف .. يجب أن أتخذ القرار الذى لم أحسب له حسابآ ذات يوم .. ولكن كيف أعلن عن هويتى وانا أهرب من ماضى أغلقت أبوابه وإحتفظت بصندوقه الأسود بداخلى .. كيف أعلن عن هويتى وانا حاولت بكل قوتى أن اهرب بعيدآ عن حبى الوحيد الذى أجبرنى القدر أن أهرب منه وأكتفى بحبه بداخلى خوفآ عليه من ماضىّ المؤلم ..

قررت وفاء أن تغير طريق العودة ونذهب سويآ لمنزل والدتها الذى هجرته منذ وفاة والدتها .. قالت أنها بحاجة لتبتعد قليلآ عن زوجها وابنائها الأثنين وتقوم بعمل شيئآ جديدآ لم تفعله منذ ليلة زواجها .. او ربما كانت تعتقد اننا بحاجة للعودة لسنوات قليلة ماضية من أعمارنا نستعيد فيها ذكرياتنا .. فهى تعلم بأننى أنتمى بروحى وقلبى الى ذلك البيت .. كانت مُحقة ، نعم روحى تنتمى إليه .. كم إشتقت لرائحته ، فهو شاهدآ على ألآمي ، شاهدآ على ذكرياتى معها ومع والدتها .. شاهدآ على حنان والدتها ومحاولتها تضميد جراحى .. ومشاركتهم معاناتى وانا أحاول

طمس هويتى القديمة ومحو إسم "مريم حامد" والبدء من جديد بحرفان فقط من إسمى .. كان بيتآ يمتلئ بالدفء لدرجة تشعرنى بالأمان الذى فقدته .. وأحتاج إليه ..

تجولت بالمنزل وانا أتفحص حوائطه التى مازالت مُعلقة عليه صورنا القديمة انا ووفاء .. صورنا ونحن بالجامعة كم كانت جميلة .. وقفت أتأملها ، لم الاحظ يومآ بأننى لا ابتسم بكل تلك الصور .. ولكن وفاء كانت تبتسم فى جميع الصور كعادتها .. وقفت بجانبى تتأمل صورنا .. لقد بدأنا نشعر بالحنين لتلك الأيام .. برغم أننى لم أبتسم بها يومآ الا انها مبهجة كثيرآ ، ربما لأنها تحمل بداخلها أشخاصآ كانت تجمعنى بهم علاقة مميزة برغم سطحية صداقتى بهم ، او ربما أشعر بالسعادة لأن وفاء تقف بجوارى بكل الصور .. نعم هى بجوارى منذ اللحظة الأولى لدخولى الجامعة ..

لقد كان يومى الأول بالجامعة غريبآ وكأننى سافرت الى بلد لا أتقن لغة شعبه .. ولا ارتدى ملابس تناسبه .. ولا أشعر بالإنتماء له .. بل كانت بداخلى رهبة شديدة ، وقلق لا أعرف هل هو من التجربة الجديدة أم لأننى لم أعتاد على التحدث مباشرة مع الناس ..

اتساءل :كم عامآ مضى وانا أشعر بالوحدة ؟..

كم عامآ مضى وانا لم أتحدث مع أحد ؟ .. كم عامآ وأنا ليس لى رفيقة سوى قطة صغيرة كانت بحاجة الىَ لإطعامها .. أعتقد أننى كنت بحاجة أكثر إليها لتؤنس وحدتى فى منزل لا أرى فيه ضوء الشمس .. تلك كانت حياتى فى بيت والدى ، كان مختلفآ عن بيت وفاء .. لا توجد به شمسآ تدفئنى فى ليالى الشتاء الباردة ، ولا نورآ يجعلنى أحلم كبقية البشر ..

أخرجت وفاء من مكتبها صـندوقآ يحتوى على الكثير من الصـور التى جمعتنا أيام الجامعة وما بعدها ، وصـــورآ أخرى لعائلتها التى لم يتبقى منها أحدآ ، فكان أخرهم والدتها التى توفيت بعد زواج وفاء بعامآ .. كانت وفاء تحدق بصورة قديمة جمعت والدتها ووالدها .. بدأت تتحدث عنهما بنبرة يملؤها الشجن ..

– كانا والدايَ مُحبان لبعضهما كثيرآ ، ليتنى أعيش أنا وزوجى حياة مثالية مثلهما .

– سـتكونين مثلهما تمامآ يا صـديقتى العزيزة ، فوالديكِ زرعا فيك الكثير من المحبة ، وسـتكونين أمآ عظيمة أيضآ كما كانت والدتك تمامآ.

إبتسمت خجلآ وعادت تنظر نحو صور عائلتها ، ثم عادت تنظر نحوى فى صمت ..

– سألتها : ماذا بكِ ؟ .. لماذا تنظرين نحوى بغرابة ؟

– الم تشتاقين لـ عادل يومآ يا مريم ؟

نظرت لها مندهشة وقلبى يخفق بقوة ، ولماذا تذكرتهِ الآن ؟

أعلم أنكِ تتألمين يا مريم ، فما أصعب أن يهرب الإنسان من حبآ ملأ حياته بالسعادة ..

تنهدت وتحدثت بداخلى متمنية أن لا تسـتمع وفاء لما أقوله أو ترى فى عينى نظرات الأشـتياق التى تملؤها ..

– إنه أحبك كثيرآ يا مريم ، وأعتقد أنه كان سـيحبك أكثر إذا علم بأنكِ كاتبة رواياته المفضـلة ، حتى الآن لا أعلم لماذا أخفيتى عنه ذلك ؟

تسألنى وفاء سؤالآ ربما لو أجبتها عليه سوف تتهمنى بالجنون ، فكثيرآ ما كانت تطلب منى أن أعلن عن ماهيتى لعادل ، لكننى كنت أرفض معللة بأن الوقت غير مناسب ..

ولكن ماذا إذا أخبرتها أننى أهرب منه من فرط حبى له ؟

عدنا لنتصفح صورنا .. لكل صورة منهم ذكرى مازالت عالقة فى ذاكرة وفاء ، ولكننى نادرآ ما أتذكر ايآ منهم ..

أخرجت وفاء إحدى الصور بلهفة وسعادة ..

– هل تذكرين ذلك الشاب الوسيم الذى يقف معنا بالصورة ، لقد كانت تتمنى كل الفتيات مواعدته ؟ .. هل تتذكرين من هو ؟ .. إنه "سليم" الذى تزوج زميلتنا نرمين اللذان كانا يدرسا معنا فى الجامعة ..

– أجبتها ساخرة .. نعم أتذكره .. من كان يعتقد أن نرمين ستكون سببآ فى أن تخرج مؤلفاتى للنور ؟ ..

– جميع محاولاتها للإيقاع بكِ حتى تنضمين لقائمة أصدقائها الذين يعلم الجميع بسوء أخلاقهم باءت بالفشل ، وما زاد الأمر سوء حين وقع سليم فى حبك أنتِ وإبتعاده عنها .. كان هذا سببآ كافيآ أن تكرهك نيرمين .. الا ان الأقدار كانت منصفة لكِ تلك المرة يا مريم .

– أنتى تعلمين جيدآ يا وفاء أن سليم لم يكن يعنى لى شيئآ على الإطلاق ، حتى إذا أحبنى هو .. اما انا فلا أبحث عن الحب .. فالأنثى التى تألمت من العلاقات طوال حياتها لن يفتح قلبها بسهولة وأنتى تعلمين ما عشته ..

***

كانت وفاء تتحدث عن الأقدار التى حاولت إسعادى ، ولكن حتى تلك المرة لم يكن النجاح حليفآ لى بتلك السهولة ، فما مررت به لم يكن مخططآ له مني ، ولكن نرمين خططت جيدآ له ونتيجته لم تكن كما توقعت هى ..

لقد كان لقائى بنرمين أشبه بلعبة قمار لم ألعبها ، ولكنها هى من حاولت أن تلقى بالنرد وتنتظر أن تنجح خططها ..

بعد إنتهاء سنوات الجامعة ، لم أكن انوى العمل بأى مؤسسة سواء حكومية او خاصة .. فأنا لم أكمل دراستى الجامعية بغرض العمل ، بل كان إكمال دراستى جزءآ من سلسلة أمنيات حرمنى القدر منها ..

كانت عادتى أن أجلس فى إحدى المقاهى ، أمارس التأمل برغم الصخب الذى يحيط بالمقهى " وهذا كان يثير فضول عمال المقهى كثيرآ " .. إقترب منى أحد العاملين وهو يقدم لى قهوتى الصباحيةوسألنى بإستحياء ..

– هل لى أن أسألك سؤالآ يثير فضولى منذ مدة .. كيف تستطيعين ممارسة التأمل فى مكان يحيط به الصخب من جميع الجهات !

– أجبته بإبتسامه هادئة .. الجميع يمارسون التأمل فى هدوء لأنهم يسافرون فى رحلة الى أعماقهم ، يرغبون فيها بخروج طاقتهم السلبية من أجسادهم وعقولهم ولن يحدث ذلك سوى فى مكان هادئ .. أما أنا فأمارسه وسط ضجيج البشر خوفآ من إغماض عينى بمكان هادئ خالى من البشر .. فأحيانآ يصبح البشر أكثر أمانآ من دواخلنا ..

– أتقصدين بأنكِ تخافين من أعماقك أكثر من خوفك من البشر !

– بل أعماقى والبشر يدهشانى دائمآ بما يقدمونه لى .. فكلاهما مؤلم حتى لو أحبك .. ولكن البشر أمام عينى أراهم وأستطيع أن أبتعد عنهم أذا رغبت بذلك .. أما داخلى فلن أجد ملجأ منه سوى إليه ..

– لن أخفيك سرآ ، هذه المرة الأولى التى أسمع فيها فلسفة كهذه برغم دراستى للفلسفة !

– إذآ أنت دارس للفلسفة وتعمل فى مقهى لا يمت لدراستك بصلة ..

– إبتسم .. يأتى زوار كل يوم لهذا المكان ولكل منهم قصة مختلفة ، فأجد عقلى أصبح بارعآ فى قراءة لغة صمتهم .. مثلك تمامآ ، فصمتك يحوى الكثير من الأحاديث .. إنه ليسآ حبآ عاديآ شعرت به وإنتهى ، بل هو كالإعصار الذى إجتاح قلبى، حبآ إستطاع أن يزرع الأمل من جديد فى حياتى .. إنه الوحيد الذى يرتجف معه كل كيانى .. أتنفسه ولا أستطيع أن أتخيل أن أحيا بدونه ، ولكننى لا أجرؤ على الإقتراب منه ..

لم تكن قصتى معه لها نهاية كباقى نهايات الروايات التى كتبتها .. فجميع قصص الحب لها نهايتان فقط إما الزواج او إنتهاء العلاقة .. ولكن علاقتى بعادل ليس بها نهاية فهى عبارة عن هروب مستمر .. هروب من علاقة لا أدرى الى أين ستؤول بى .. أو ربما هروبآ من حاضر

يحلم به عادل ويرســـم مســـتقبله متفائلآ .. وهو لا يعلم من تكون حبيبته ؟ .. لا يعلم ما هو ماضيها ؟، ولا يعلم كيف عاشت أو ماذا عانت فى حياتها ؟ .. لا يعلم سوى أنه عشق فتاة لم تكن فائقة الجمال ، ولكنها عنيدة .. لم تكن مثل باقى الفتيات اللواتى عرفهن .. عشق تفاصيلها دون أن يرى ما بداخلها ولكنه أراد فقط أن يكمل حياته معها ..

أعلم أن نهاية قصـــتى معه ســـتكون مموئلمة .. وإن إختفائى المفاجئ عنه منذ شـــهرين كان كالصفعة التى لم يذوق مرارتها من قبل .. أتعذب أنا هنا ويتعذب هو بحثآ عنى فى كل مكان ..

لقد مر شهرين على إختفائى المفاجئ عنه وهو مازال يبحث عنى ويسأل كل الأصدقاء .. ليتنى أستطيع أن أعود له ، ليتنى أستطيع أن أحتضنه وأعتذر عن إختفائى عنه ، ليتنى أستطيع أن أخبره كم أحببته وكم أتألم وأنا بعيدة عنه .. كان هروبى المتعمد ليس الا بحثآ عن ســعادته هو، فأنا أعلم جيدآ بأنه لن يكون سعيدآ مع فتاة بداخلها كل هذا الألم ..

أخرجتنى وفاء من شرودى وهى تسألنى :

- إنك تشتاقين له كثيرآ يا مريم ، لماذا لا تعودين له ؟

تعلمين أنه يبحث عنكِ فى كل مكان ، وتعلمين أيضـآ ان من حقه أن يعلم أنكِ كاتبته المفضـلة كما أخبرتينى ..

– صدقينى يا وفاء ، مازلت لا أعلم ماذا يجب أن افعل تجاهه، فكل ما فكرت به أن سعادته لن تكون معى ..

انه حتى لا يعرف أننى الكاتبة التى عشـــق كتاباتها وكان يحدثنى عنها ويتغزل بكل ما تكتبه ، وعن المشـاعر التى تسـيطر عليه وهو يقرأ حروفها .. فهو برغم قوة شـخصـيته الإ انه يصـبح كالطفل عندما يتحدث معى ، ويفيض عشـقآ لكاتبة لم يراها ، بل كل ما يعرفه عنها حرفان فقط من إسمها .. وهو لا يعرف إننا شخص واحد ..

تركنى الشاب ورحل .. وتسائلت .. هل أصبح ما بداخلى واضحآ للجنيع ، أم أصبحت أعماقى عارية حتى بات الجميع يعرف ما تحويه من تفاصيل مؤلمة !

كنت أقوم بتدوين ما يجول بعقلى من أفكار كعادتى بعد ممارسـة التأمل وانا أنتظر حضـور وفاء ..

.. لم أقابل وفاء ذلك اليوم ولكن كان القدر مخططآ لى خطة أخرى ، أن أقابل نيرمين .. التى وقفت بجوارى تقرأ ما أخفيه بين طيات أوراقى .. فتارة أكتب ذكرى مررت بها فى حياتى ، وتارة أخرى أكتب عن أشخاصآ من نسج خيالى ..

فاجأتنى نيرمين بضـحكة عالية وسط المقهى وهى تقف بجوارى .. نظرت نحوها بذهول متسائلة .. من تكون تلك الفتاة التى تضحك بتلك الطريقة؟ ..

لم أتعرف عليها من الوهلة الأولى .. ولكنها لم تنتظرنى لأســألها من تكون .. فنظرت مباشــرة لعينى بنظرة تحدى وكأن لعبتها الخاسـرة معى فى ان تكسـب حب سـليم لها مازالت بذاكرتها .. ولكنها حاولت إخفاء نظرتها الحاقدة بإبتسامة حب مصطنعة ..

– امازلتِ لا تعرفين من أكون يا مريم ؟

– وبنظرة حادة أجبتها .. الحقيقة انى لا أعرفك .. من تكونين ؟

– أنا نيرمين ، كنت زميلتك بالجامعة .. خطيبة سليم

– نعم تذكرتك ، مرحباً بكِ .. حدثت نفسى " مازالت كعادتها ترتدى أغلى الثياب وأكثرها تحرراً"

.. جلست مُسرعة دون أن أدعوها لمشاركتى الجلسة التى كنت أنوى أن اكون فيها بمفردى .. كعادتها المتطفلة إلتقطت الأوراق المطوية على الطاولة وتصفحتها بإهتمام .. ربما كانت تبحث عن شيئاً معيناً مكتوباً عنها او عن سليم .. ولكنها لم تجد سوى أشخاصاً لا تعرف عنهم شيئاً .. القت الاوراق بلا إهتمام .. ثم بدأت الثرثرة كعادتها منذ ايام الجامعة عن اصدقاء الجامعة الذين نادراً ما أعرف أحدهم ، وعن سفرها لبعض الدول التى تعانى من الفقر لتساعد الفقراء على حد قولها .. ثم تابعت الحديث فى اللاشئ .. كنت أستمع لبعض أحاديثها ، والبعض الأخر كان عقلى يشرد فى محاولة إيجاد طريقة لأتخلص منها سريعاً وأرحل .. ولكن كيف أتخلص منها ؟ .. هل أنهض واخبرها أننى على موعد أخر ؟ ، أم أطلب منها أن تتركنى وترحل مباشرة ؟ ..

ثم سألتنى فجأة : هل تتواعدين أنتى وسليم ؟

كان ردى تلقائياً وسريعاً عليها بالنفى .. فأنا لم أهتم يوماً بعلاقتها مع سليم او حتى بمشاعره نحوى .. بالأحرى لا تعنينى المشاعر ، فأنا لا أعترف بالحب مطلقاً ..

إبتسمت براحة وكأن جبلاً قد هُدم من فوق قلبها .. وفاجأتنى قائلة :هل فكرتي يوماً بنشر ما تكتبيه هذا ؟

صمتت طويلآ وأنا أفكر .. هل يجوز أن تكون كتاباتى تلك مصدرآ لإعجاب أحدآ ما ؟ .

– لا تفكرين كثيرآ يا مريم ، فأنا سوف أساعدك فى نشرها .

ردت بإضطراب شديد .. لا أنوى على ذلك ، فأنا أكتب لنفسى فقط ولم أفكر فى ذلك مطلقآ ..

– إذآ فليحدد ذلك السيد رياض مدير دور النشر .. ما إذا كانت مؤلفاتك تصلح للنشر أم لا ؟

صـمتت ..ولم يكن صـمتى موافقة بل كانت الحيرة تسـيطر على كيانى كله ، فعجزت عن الرد سـريعآ عليها هل أصـمم على الرفض أم أوافق ؟ .. ولكننى أمام القدر كعادتى كنت مسـلوبة الإرادة وأعلم انه لن يفيدنى القبول أو الرفض ، فما سوف يقرره قدرى سوف يكون كالعادة ..

كانت مقابلتنا الثانية مخططآ لها من نيرمين ، وليسـت صـدفة تلك المرة .. فكانت دعوتها لى على حفل ميلادها هى المرة الثانية للقائنا ، وكانت تخطط أن اقابل السـيد رياض فى الحفل وكأنها مجرد صدفة .. إعتقدت بأن خسارتها السابقةلحبيبها سليم قد طويت فى الذكريات البالية للجامعة .. ولكننى كنت مخطئة ، فهى لم تخطط لمساعدتى ، بل كانت تخطط أن تكسب جولة ثانية من اللعبة ، وتعوض خسـارتها السـابقة أمامى .. فإبتعاد سـليم عنها وإختيار حبيبة أخرى غيرها كانت خسارة فادحة لم تتعود عليها ..

ذهبت لمنزلها وانا أحاول أن أخفى القلق الواضـح على ملامح وجهى، فأنا لم أعتاد على أجواء الحفلات ... كان منزلها الشاسع ممتلئآ بالتحف الغالية وبالضيوف ايضآ .. وبمقارنة ملابسى للمكان فقد كانت رسـمية ، فأنا كنت على موعد مع رئيس دار نشـر كما أخبرتنى نيرمين وكان مناسبآ أن ارتدى تلك الملابس كما ظننت .. بينما الحاضرون فتشعرنى ملابسهم المتحررة بأنهم

لا ينتمون لتلك البلد التى تتنفس بالعادات الشــرقية ولا يعترفون بها .. ومراســم أحتفالاتهم كانت وكأنها فقط للمتعة الجسدية ..

حاولت أن أجد مكاناً بعيداً عن تلك الاجواء التى لا تناســب عاداتى ، أنتظر الســيد رياض أملاً أن ينتهى لقائنا سريعاً وأهرب من المكان .. الا أن الوقت كان يمضى ببطأ ، وبين الحين والأخر كانت تحاول نيرمين أن تطلب منى الإنخراط فى حفلها مع رجالاً لا يتســمون بصــفة واحدة من صفات الرجولة .. ولكننى لم أنتظر كثيراً ، فسارعت بالهروب من المكان ..

عدت للمنزل وانا أحاول أن أفهم لماذا طلبت منى نيرمين حضــور هذا الحفل ولكنها ســرعان ما دبرت لى لقاءاً آخر مع الســيد رياض.. لقد كانت نظرته لى توحى بأنه يعلم جيداً بأن ما سـيقرأه من مؤلفاتى اشبه بورقة فارغة ، مقرراً بداخله أن ينظر لها سريعاً ويلقيها خلفه ، ثم يمنحنى أملا كاذباً بأن كل شئ سيكون على ما يرام فى محاولات أخرى قادمة ..

أنا مثله تماماً كنت أعتقد أن ما أكتبه لا يستحق القراءة .. وأن كل ما أتوقعه هو فقط ما يحدث دائماً ، فوضـــعت بين إيديه ما كتبته .. ولكننى وجدته ينغمس فى قراءة مؤلفاتى .. حتى مرت ســـاعة وهو يقرأ الأوراق بتدقيق شـــديد ، وبرغم نظرات الإعجاب التى بدت على وجهه الا أنه جعلنى أشـعر بقلقاً شـديداً من ان تكون النهاية هى طرده لى الى الأبد من داخل مكتبه .. الا أن القدر وللمرة الأولى أراد أن يخلف ظنونى وأن يبقينى على قيد الحياة بلا ألم .. تلك المرة كانت السعادة هى بداية طريقى .. إلتقطت أنفاسى بصعوبة وأنا أسمع حديثه عنى..

– لم أكن متأكداً من أن حديث نرمين عنكِ ســـيكون حقيقياً فقد أخبرتنى بأنك تكتبين ببراعة .. وأنا لدى الآن رغبه فى قراءة أعمالاً أخرى كاملة لكِ .. صمتّ قليلاً ثم سألنى ..

– لماذا لا توجد نهاية واضحة لكل كتاباتك ! .. فقد لاحظت ان لجميعهم نهايات متروكة لخيال القارئ .. وإستطرد مازحآ ، هل تكرهين النهايات ؟

– إننى لم أعتاد على وضع النهايات فى حياتى سيدى ولذلك يصعب علىّ كتابة نهاية لأبطال تلك الروايات .

– إن من إعتاد على ان يسيره الآخرون ، فأجدر به أن يضع هو نهايات لما يكتبه ، حتى وان كان هذا يرضيه ولو بقليل من القوة .

– كيف تمنحنى النهايات القوة التى سُلبت منى منذ زمن بعيد يا سيدى ؟ .. بل أيضآ قد سُلبت منى النهايات والقوة فى آن واحد .!

– ربما اليوم هو البداية التى ستمنحك القدرة على وضع النهايات التى ترغبين بها .. ما رأيك أن نبدأ اليوم ؟

نظرت له مبتسمة إبتسامة ممتزجة باليأس .. ربما تشعر يومآ بالندم من مساعدتك لفتاة لا تملك حتى القوة التى تكتب بها نهايات لرواياتها ..

إبتسم واثقآ ، سأدعمك بالقوة التى تحتاجينها .. أما أنتِ فسوف تمنحينى نجاحآ ساحقآ بما سوف تكتبيه .. فنحن متفقون حتى لو إختلفت مواقعنا فى حياة بعضنا البعض ..

كانت كلماته أشبه بحضنآ أبويآ لطالما إحتجت له .. فقد أراد نجاحآ لكلينا بلا تردد .. وجعلنى أشعر بالطمأنينة نحو النهايات ..

أتذكر أننى عندما كنت أكتب رواية و أصل لنهايتها كانت ترتعش يدى ، ينتابنى شعوراً بالخوف ، لا أعلم إذا كانت نهاية الرواية أم هى نهايتى أنا .. فأنا إبنة رجلاً علمنى أنه فقط من يملك كتابة النهايات لكل شئ .. وليس لى حقاً فى أن أفكر فى ان أضعها بنفسى ..

وكلما حاولت أن أجد طريقاً أسير من خلاله نحو الأمل .. كنت أتعثر دائماً بذكرياتى التى آمنت بأنه ســـيأتى يوماً ويمنحنى القدر فرصـــة حتى أتحدث عنها بطريقة ما .. أحاول أن أمحو من داخلى ذلك العقاب الذى عوقبت به دون أن أقترف خطأً واحداً .. ربما يكون خطأى الوحيد هو إنتمائى لعائلة ريفية متشددة الأفكار .. لها قوانين خاصة تحكمها بعيداً عن قوانين البشر .. لا تؤمن بالحرية ، ولا تعترف بكبرياء المرأة .. أو ربما لأننى أنتمى لأب لا يسمو لمرحلة الأبوة التى تُجبره على الإعتراف بأنه يجب عليه أن يشـــارك إبنته أنفاســـه .. وأن يُجاهد فى وأد عُقَده التى تحاول الإقتصـــــاص منى ، ولكنه لم يبذل أدنى جهداً فى ذلك .. بل كان عقلى يذوب مع تلك الذكريات ويعود حيث القرية التى ولد فيها أبى حامد وتزوج من أمى ليلى ..

***

لم يكن حامد من أبناء المدينة ولم يترعرع فيها ليتعلم قوانينها المتحررة وينشـــأ عليها مثلما يعيش أهلها .. بينما هو ولد فى

" قرية الصـناديدى " إحدى القرى الريفية الواقعة على أطراف الدلتا .. لم يتربى حامد على الحرية ، بل على القمع تحت سيطرة أمه سيدة القرية " نواهل " تلك المرأة التى بلغت الستين من عمرها ولكنها تمتلك قوة شـــابة ثلاثينية .. تمتلك فطنة حادة جعلتها تحكم القرية بأكملها دون خوف من رقيب ولا حسيب .. يؤخذ برأيها فى تشريع القوانين الخاصة بالقرية .. وأوامرها يجب على الجميع إطاعتها مهما كلف الأمر .. لكن تلك القوانين لم تَّطبق على إبنها المدلل " حامد " ذلك الشـاب الوسيم الذى تتمنى الزواج منه جميع فتيات القرية .. بينما هو إختار أن يكمل مسيرته الجامعية فى جامعة القاهرة ، والفرار من القرية الصـارمة .. لم يلبث أن يطلب من أمه السفر ، فقد وافقت ســـريعآ على طلبه لتحقق من خلاله حلمآ يراودها منذ توليها إدارة شـــؤون القرية .. فكان حامد بالنسبة لها الأبن الذى سيكمل تعليمه ويكمل أمبراطوريتها داخل القرية .. فجميع أبنائها لم يكمل أحدآ منهم تعليمـه .. هكذا كـانـت تحلم " نواهل " .. لكن حـامـد تمرد على تلـك الأحلام وتلـك القوانين منذ وصـــوله الى القاهرة .. فقد كان يقضـــى وقته بين أشـــخاصـــآ مختلفون فى الأفكار والإنتماءات عنه .. يعيشـون بحرية ويتمتعون بالحياة كأنهم سـيعيشـون أبدآ .. راقت لحامد تلك الحياة .. فهو إعتاد أن يعيش حياة باهتة داخل القرية ..

فقرر حامد أن يتمرد على رغبات نواهل وأحلامها فيه .. وأن يتخلص من جذوره .. ولكن الأمر لم يكن سـهلآ .. كان كمن يحاول الخروج من عنق زجاجة وضـعته بها أمه .. يتلخص ما يفكر بـه فى أن يفعل عكس عاداته التى تربىَ عليها .. فيكون أقصـــــى ما يمكنه فعله هو أن يختار زوجة لا تنتمى لقريته ، متحررة لا تؤمن بأفكار الريفين القديمة ، زوجة لم تتعود على إرتداء ثيابآ

تخفى جمالها مثل فتيات القرية اللواتى يرتدين ملابس سوداء فضفاضة ليخفين زينتهن ، بل كانت ليلى تنتقى أغلى الثياب وأكثرها تحررآ .. هكذا تربت ونشـأت (ليلى) إبنة المدينة .. فهى جزءآ من إحدى العائلات التى تُربى بناتها على الحرية حتى وإن كانت خاطئة من وجهة نظر الأخرين .. عائلات تُدلل بناتها وتغرس فيهن أفكار خاصـــة بهم .. إعتقد (حامد) بأن زواجه من فتاة متحررة وجميلة مثل ليلى ســوف يخلصــه من عقدته التى بثها زملائه بالجامعه فى عقله .. إنه ريفيآ ، ولا يحق له الزواج ســوى من إمرأة ريفية مثله .. وان الريفيون هم أكثر رجعية عن غيرهم من البشر .. كلماتهم التى كانت تخترق سمعه مُحدثة بداخله ضجيجآ جعله يثور على الريفين .. أصبحت كلماتهم بالنسبة له وكأنها سَبة .. أو مُعضلة يجب عليه أن يجد لها حلآ .. حاول أن يتخلص من تلك العقدة ظاهريآ أمام المجتمع المتمدن ، ولكنه لم يتخلص من أفكار الريفيين التى حُفرت بداخله وأصــبحت جزءآ من كيانه .. أراد أن ينزع عن جســده جلباب الريف الملون بجهل ورجعية الريفيون .. فكان قرار زواجه من ليلى إنصـــافآ لخيالـه .. إعتقادآ منه بأنها ســتكون طوق النجاة الذى ســيحرره من عقدته ، وســيخلق منه رجلآ أخر قادرآ على مواجهة مجتمع لا ينتمى له .. ولكنه لم يصــمد طويلآ أمام عادات لم يؤمن بها .. ومعتقدات لم يســمع عنها يومآ .. وشـــعور بالهزيمة أمام عائلته التى لم تُرحب بفتاة المدينة .. أصـــبح مُحطمآ بين عقدته وبين عائلته .. يحاول أن ينجو من إعصـــار الأفكار الذى إجتاح عقله ، لا يعلم إذا كان عليه أن يعود ريفيآ كما كان ، أم يتحرر ويصبح من رجال المدينة ! .. ضاع بين أفكاره وسلبيته التى لم يجرؤ أن يتخطاها بداخله ، ولم يجد طريقآ ســـلســـآ يمر من خلاله نحو الخلاص من كلمات عائلته القاســية وإتهامهم له بأنه خرج من جلباب التدين وأصـــبح لم يعرف طريق الله .. فكان يتوسل لأمه بأن توافق على زواجه من ليلى ..

. أنا لن أتزوج فتاة من فتيات القرية يا أمى .. فأنا رجل أتم تعليمه على عكس شباب القرية الذين إختاروا أن يتعلموا الزراعة والصـــناعة .. وفتيات القرية ولا واحدة منهن أكملت المرحلة الإبتدائية .. بينما ليلى فقد أكملت تعليمها الجامعى مثلى تماما .. لقد إختارها عقلى وليس قلبى .

– ردت بغضب شديد : ولكنى عندما وافقت على إتمام تعليمك ، كنت أنوى أن تتزوج من إحدى الفتيات بالقرية وتكون عونآ لأخواتك بعقلك .. وتكون لهم المدبر لشـــؤونهم التى تحتاج لفهم .. واليوم أنت تريد أن تبعد عنى وعن قريتك !

– ولكننى حسمت أمرى يا أمى سوف أتزوج من ليلى وأعود بها الى القرية بعد زواجنا .

– لتكن مشـــيئة الله .. ولكن عليك أن تعلم يا ولدى بأننا لن نتقبل زوجتك واحدة من عائلتنا .. ويومآ ما ستعود الينا وحيدآ ، وربما حينها لن نتقبلك أنت أيضآ واحدآ من العائلة ..

تزوج حامد من ليلى ســـريعآ وكأنه يحاول أن يتحرر من قيوده الفكرية ســـريعآ .. يريد أن يثبت لأصـــدقائه بأنه ليس رجلآ ريفيآ قديم الطراز .. لكنه رجلآ إســـتطاع أن يتزوج من فتاة المدينة الجميلة .. وبعد إنتهاء عامه الأخير من الجامعة .. قرر أن يعود الى القرية مصطحبآ معه ليلى .. كان قراره تنفيذآ لوعده لأمه بأنه سيعود مع زوجته .. ولكنه كان يستسلم للعودة الى ماضيه .. الى طفولته التى تتمثل فى عائلته وقريته التى إعتقد بأن عناية الله تباركها ، وأن محاولته للإبتعاد عنها هو فســـاد أخلاقه التى تربى عليها .. وان الحق هو فقط الكلمة التى تقولها ســـيدة القري " مناهل " ، والتى بذلت جهدآ ضـــاريآ فى زرع أفكارها بداخله ، وأن لها الكلمة الأقوى فى تســـيير خطوات أبناءها.. هكذا كانت تسير الأمور فى تلك القرية البعيدة عن المدينة .. وهكذا تأكد حامد بأن التخلى عن ليلى وعودته للقرية هى الخلاص من الصـــراع الذى كاد يقتله .. لكنه لم يعود

لقريته وعائلته بمفرده مُتحصـناً بأفكاره التى أصـبحت شـبه متحررة ، بل قرر أن يخلق من ليلى المتحررة ، "ليلى جديدة" يجب عليها أن تتعود على حياة القرية ، وأن تعتنق أفكارهم حتى لو كانت عكس ما عاشـــته طوال حياتها .. كان حديثهما كحرب يريد كل طرف من أطراف المتحاربين فيها أن يفرض أفكاره ومعتقداته على الأخر .. حينها بات الإختلاف بينهما واضـــحاً .. فرجل القرية لن يقبل بأن تفرض عليه زوجته رأيها ..

– إننى لم أتعود على الحياة الريفية يا حامد ، فلماذا ترغمنى على الســفر معك ؟ .. لقد أخبرتك مراراً بأننى لن أسافر معك الى هناك .. إذهب اليهم بمفردك وعندما ستعود سأكون فى إنتظارك فى بيت والدتى .

– ولكننى وعدت أمى بأن تسافرين معى بعد زواجنا .

– لم تخبرنى بذلك مسبقاً ، بل علمت بذلك بعد زواجنا ، فتحمل وحدك نتيجة إخفاء ذلك عنى

– ولكنك أصبحتِ زوجتى ومن حقى أن تنضمين لى فى كل مكان .

– لو أخبرتنى عن نواياك مسبقاً ، لما وافقت على الزواج منك .

كانت الحرب بينهما على أشدها .. حين قررت ليلى بأن ترفض السفر مع حامد لقريته .. أقنعها والدها بأن الفتاة الحرة هى من تعلمت بأن تكون حرة بكل مكان ولكن بجوار زوجها أينما يذهب ، وليس عكس طريقه .. فهى قادرة على أن تكون حرة فى أى بلد .. قررت ليلى الخضـــوع لرغبة والدها وموافقته على سـفرها مع حامد .. معللاً بأن المرأة يجب أن تكون مع زوجها فى كل وقت ، محاولاً التخفيف عليها من وطأة خوفها من السفر للقرية ..

سارت ليلى فى شوارع القرية ببطئ وهى ترتدى فستان قصير يكاد يصل الى ركبتيها .. تتطلع الى شوارع القرية فى حذر شديد وصولآ الى منزل " مناهل " .. ويقف فى جانبى الطريق ثلاثة نساء من نساء القرية اللواتى يرتدين ثياب محتشمة وفضفاضة .. يختلسن النظر بين الفينة والأخرى نحو ليلى .. يتلمزن عليها بين بعضهن البعض ..

السيدة الأولى : هل هذه زوجة حامد الذى رفض الزواج من بناتنا من أجلها ؟

السيدة الثانية : إنها جميلة

السيدة الثالثة ترد بإمتعاض : لقد إستطاعت سيدة القرية فرض قوانينها الخاصة المتشددة على جميع أهل القرية صغيرآ وكبيرآ ، ولم يستطيع أحد مجابهتا يومآ ، فيماعدا ولدها حامد فهو الوحيد الذى تحرر من قيودها

إبتسمت السيدة الأولى بسخرية قائلة :

وما أدراك بأنه لن يعود أدراجه تحت سيطرتها ؟ .. إنها " مناهل " وجميعنا نعلم بأنها لن تترك زوجته وشأنها .

وصلت ليلى الى منزل سيدة القرية وكبيرتها .. لم يكن إستقبال عائلة حامد لزوجته كما توقعته ليلى .. فكانت تتخيل بإنهم سيفخرون بزوجة إبنهم المتعلمة الفائقة الجمال .. بينما كان إستقبالهم شاحبآ .. بينما إستقبلتها سيدة القرية بإبتسامة حانقة .. حاولت ليلى أن تتقرب منها ولكنها رفضت أن تلمسها حتى طرف جلبابها .. علمت ليلى منذ الثوانى الأولى لوجودها فى القرية بأن مصيرها لن يكون سعيدآ .. نظرت نواهل الى ليلى بسخط ثم نحو حامد قائلة :

– إصطحب زوجتك يا حامد لغرفتها ، وعود مرة أخرى الى هنا لأتحدث إليك ..

– عاد حامد متوجساً متسائلاً : هل ضايقك أمر ما من ليلى يا أمى ؟

– ردت مقتضبة : عندما تزوجت من خارج المدينة كان يجب أن أعلم بأنك تنصلت من عاداتنا .. واليوم أنت عدت الى القرية مرة أخرى بإرادتك ، فيجب عليك أن تعود لإعتناق عاداتنا مرة أخرى .. وأن تخبر زوجتك بأن ما ترتديه من ملابس لا يناسب أخلاق قريتنا .

– إن حديثك صحيحاً يا أمى ، سوف أخبرها بما تريدين ، وعليها طاعة أوامرك .

شعرت نواهل بأن ولدها عاد إليها مرة أخرى ، وإنه سيتخلى عن ما إعتنقه من أفكار فى المدينة .. أما ليلى فكان يجب عليها أن تعيش حياة بدائية فى قرية ينظر لها فيها جميع سكانها على إنها مجرد فتاة متحررة تزوجها حامد إبن قريتهم .. إنهم يعرفونها "بفتاة المدينة" التى تفتقر الى دينها وتعاليمه وقدسيته ، فتصبح المرأة جسداً يرغب الرجال فى تقطيعه والتمتع به ، قرية تُجبَر فيها النساء على إرتداء ملابس سوداء إعتقاداً من رجالهم أنها ستراً لهن .. وليس لهن الحق أن يعترضن ..

أُجبرت ليلى على أن تعيش فى بيت يقوم على السمع والطاعة وتحكمه سيدة واحدة فقط بعد رحيل والد حامد وهى " الأم " او كما يسميها أهل القرية " سيدة القرية " .. عندما وصلت ليلى الى تلك القرية شاهدت كل شئ مختلف عن حياتها .. النساء يرتدين ثياباً تغطى جميع أجسادهن ، لا يبتسمن خارج منازلهن الا لأزواجهن فقط .. لم تسمع أصواتهن الا فى حفلات الزفاف التى يجتمع فيهن النساء فقط ، اما الرجال فلهم مجالس خاصة بهم فى مكان يبعد كثيراً عن مجالس النساء .. شعرت ليلى سريعاً بأنها لا تنتمى لهذا البيت الكبير .. ولا تنتمى لعائلته الذين يتعاملون

مع المرأة على إنها هامش يجب عليها الســـمع والطاعة .. كانت مختلفة الأفكار عنهن .. فهى تدرك بأن المرأة ليست قطعة أثرية يجب ان تدفن فى قبو طوال حياتها خوفآ عليها من السرقة .. فهى تؤمن بأن المرأة خُلقت لتكون حرة .. لم تتحمل ان تكون صـــيدآ لنظرات رجالآ يدعون الفضيلة جهرآ ، ويقتنصون من جسدها بأعينهم سرآ .. قررت ان تتمرد على زواجآ لم يحميها من ألســـنة عائلته القاســـية ، وأعينهم التى تتهمها بالكفر لمجرد إمتناعها عن طاعتهم ، وإرتداء الملابس التى ترتديها نسائهم ..

***

كان قدر ليلى الأول أن تَرزق بمولودتها "مريم" .. تلك كانت الخية الأولى التى تعرض لها حامد فى زواجه من ليلى .. فهى لم تنجب ولدآ يحمل إسـمه وأجداده .. بل أنجبت له فتاة سـتصـبح كباقى فتيات القرية .. أصـبح يتجاهلها وكأنها فرضـت عليه إبنته مريم .. ولكنها تعرفت على الوجه الخفى لســـيدة القرية ، حين إجتمع مجلس العائلة لتنفيذ ما قررته " ســـيدة القرية " وهو التجهيز لعُرس واحدة من نســـاء العائلة .. تلك المرأة التى توفى زوجها وقررت أن تربى ابنائها بمفردها ، ولكن فى أعرافهم لا يجوز لإمرأة أن تعيش بمفردها دون زوج .. وقرارها بأن ترفض الزواج من شـــخص آخر بعد وفاة زوجها هو بمثابة التنصـــل من عادات القرية ، فلا يجوز أن ترفض الزواج .. فكان يجب أن يجبروها على الزواج من رجل لا تعرفه ولا يعرفه ابنائها .. ولكن مجلس العائلة كان قرارهم حاسمآ .. فباتت كلمة سيدة القرية حاسمة .. لم تستطيع تلك العروس

ان تثور على تلك العادات .. ولا مفر من قبول هذا الزوج الغريب .. فى يوم العُرس إجتمع نساء العائلة فى منزل العروس ، ولكن كان المنزل يخلو من مظاهر الإحتفال .. وكأنه اشـــبه بجنازة، ينظرن النســـاء للعروس وكأنهن يشـفقن عليها من مصـــير لا يرغبن أن يقعن فيه .. فكلآ منهن تعيش قهرآ فى بيتها مع رجلآ يعاملها كالسـبايا .. تنظر لهن العروس وكأنه اليوم الأخير لها فى الحياة .. تشعر وكأن شيئآ ما يترقب إنصراف النساء لينقض عليها ويفتك بها .. غادرن النساء وظلت العروس وحيدة .. جلست معها ليلى تواسيها وتحثها على رفض الزواج بكل ما تملكه من قوة ، أن تثور على الظلم ..

– كان يجب أن ترفضـــــى هذا الزواج الإجبارى يا عزيزى .. لماذا لا تثورين على تلك العادات القديمة ؟

– ردت العروس بيأس شديد وإنهزامية : هل شاهدتى كل هؤلاء النساء اللواتى غادرن منذ قليل ؟ .. كلهن يتألمن فى صمت مثلى تمامآ ، ولم تستطيع إحداهن أن تتمرد على تلك العادات .. فمن حاولت أن تتمرد فمصـــيرها الرجم .. او القتل .. فتلك القرية لا تحب النســـاء وتعتبرهن خادمات فقط لرجالهن

– ردت ليلى بدهشة شديدة : وكيف ذلك وكلكلن إبناء وأخوات وأمهات لهؤلاء الرجال ؟!

– المرأة كما هى حتى وإن تغير لقبها إن كانت أم أو أخت أو إبنة أو زوجة .. فالرجال هنا فى تلك القرية قوامون على نســـائها بالتعنيف والرجم .. ما عدا ســـيدة القرية " نواهل " فهى المرأة الوحيدة بالقرية التى تعامل بإحترام ، لإنها تملك الحق فى تشريع القوانين بالقرية .

ـ شردت ليلى تفكر فى سيدة القرية .. ماذا ستفعل معها ؟ .. هل سيكون مصيرها فى تلك القرية أسوأ مما توقعت ؟

– ولكن يجب عليكِ أن تحاولى مرة أخرى .. أو تحدثى مع زوجك وتطلبين منه باللين أن يحررك من هذا الزواج ، ربما يتفهم ما تعانيه أو أن يكون حِصناً لكِ من ظلم أهل القرية .

– إنه مثل كل رجال القرية ترعرع هنا وتغذى على تلك العادات ..

لم تلبث أن تنهى حديثها مع العروس ، حتى دخل الزوج صـــارخاً فى وجه ليلى ، يحثها على الرحيل ليجتمع بعروســـه .. لم تكن العروس تعلم بأن زوجها ســـيكون هو الظلم الأكبر الذى سيحطمها الى الأبد .. سيكون ظلمه لها اكبر واقسى من ظلم عائلتها .. فحين تتزوج المرأة من رجل غير زوجها ولا سيما ان يكون قلبها ممتلئ بحب فقيدها الى الأبد ، فتعيش مع الزوج الجديد جسداً بلا روح .. لم تدرك للوهلة الأولى بأن الزوج يعانى من إضطراب نفسى .. يتلذذ بتعذيبها .. حين عانقها بلطف بعد دقائق من رحيل الجميع .. شعرت بإرتياح ممزوجاً بترقب من مجهول .. ولكنه لم يعانقها طويلاً .. همس لها " لن تنالى الســعادة بعد الأن ولن تمتلكين فرصـــة للبوح بإلمك يوماً .. نظرت له متعجبة وهى تنتفض خوفاً من حديثه .. أغلق جميع الأبواب والأضــواء وجردها من ملابسها سريعاً وأصبح كالمجنون يجلدها دون رحمة .. يضحك بشدة حين تصرخ ويزيدها تعذيباً حين يغشـــى عليها من الألم .. كانت ليلة عُرســـها ملونة باللون الأســـود .. حين حضرت العائلة لبيتها فى صباح اليوم التالى لم يفاجئهم جسدها المشوه ، بل كان ذلك عادياً لهم .. لكن ليلى شعرت بالخوف من أن يكون مصيرها مشابه لمصير العروس .. نهضت ثائرة على الظلم .. لم تبالى بما ستفعله العائلة بها .. أمسكت بيد العروس وحاولت الهروب من المنزل أمام

الجميع .. لم تمنعها اصـوات العائلة الرافضــة لما تفعله .. سـارت فى طريقها نحو الباب لتحرر نفسها وتحرر تلك العروس معها .. الا أنها تفاجأت بزوج العروس ينهرها أمام حامد .. ولكنها لم تتوانى عن هدفها .. امسكت يده بقوة لتمنعه من ضربها وهى تنظر نحو حامد ليساعدها .. لكنها لم تدرك بأن حامد مجرد جزء صــغير من حلقة متكاملة من أفراد العائلة .. فهم كخيط العنكبوت لا يفصــلهم الا فريســة تقع بين براثنهم .. لم يحاول حامد أن ينجيها من براثن ذلك الوحش ، بل قام بجلدها معه حتى لا تغضب منه سيدة القرية .. هذا اليوم الذى دبرته الأقدرا لتنير بصيرة ليلى على ما ستعانيه فى تلك القرية .. سارت لمنزلها صـامته يائسـة .. شـعرت بأن وجودها فى تلك القرية بعد ما حدث من زوجها سـيكون عاراً سـتعيش موصـومة به ومتألمة مدى الحياة .. قررت الرحيل عن تلك القرية وعن حامد للمرة الأولى .. ولكن طلبها لم يوافق عليه بتلك الســهولة ، فقد قررت سـيدة القرية قراراً لم تكن تعلم به ليلى .. أن تظل ليلى مسـجونة فى منزل يبعد عشـرات الأميال عن القريـة .. ذلك العقاب الذى تســـتحقه ليلى فى قوانينهم .. فقد إقترفت إثماً فى حق العـائلـة .. وتمردت على قوانينهم .. لم يكن قرارهم عقـابـاً لهـا بقـدر مـا كـان خوفـاً من أن يتبع خطاها نســاء القرية ويثورن على ظلم رجالهن .. ولكن ليلى لم تقبل بذلك العقاب .. لن تقبل أن تُدفن وهى على قيد الحياة ..

فقررت أن تعود للمدينة حيث الحرية التى نشأت عليها ؛ تاركة خلفها زوجها الذى تخلىَ عنها بل إنه أصــبح عدواً لها عندما حاول رجال العائلة تعنيفها أمام عينيه وإتهامها بالفجور والعصــيان لزوجها .. فهم مؤمنون بأن الزوجة يجب أن تســير وفقاً لقوانين عائلة زوجها ، تعتنق شــريعتهم الخاصة ، وتؤمن بأفكارهم .. وأن يجب عليهم ضربها وتربيتها من جديد إن لزم الأمر ..

حزمت أمتعتها إستعداداً للعودة الى المدينة .. ولكنها لم تجد وسيلة تساعدها على الرحيل من تلك القرية .. ذهبت لتتوسل الى حامد لعله يكون رحيماً بطفلتهما ويتركهما يرحلان بسلام ، ولكنه لم يتوانى عن إذلالها للمرة الثانية ليُرضى عائلته .. نظر لها متحدياً كبريائها وشموخها رافضاً رحيلها ..

– أتركنى أرحل فى هدوء يا حامد ، فلم يبقى بيننا من الحب ما يجبرنى على البقاء معك وعائلتك .. فقد أدركت أن مشاعرى نحوك قد جفت .. ولم يبقى بيننا سوى رضيعتنا التى كتبت بإسمك .

– رد بتهكم قائلاً : لن تتركين القرية الا بموافقة " سيدة القرية " .

– نظرت له نظرة حزن ممتزجة بيأس .. هل أحببتنى يوماً يا حامد ؟

– أجل ، ولكننى أحب عائلتى أكثر منكِ .

– ولماذا تزوجت بى وأنت مازلت متعلقاً بعائلة لن تتقبل إمرأة مثلى ؟

صمت ثم رد متلعثماً وكأنه يبحث عن مبرر لما يفعله معها .. لم أكن أعلم بأنكِ لن تصبحى واحدة من نساء هذه القرية يوماً .. فقد حاولت مراراً أن أساعدك على الإنخراط بالعائلة وتعلم قوانينها ، ولكنك دوماً تصممين على الرفض للأنصياع تلك القوانين .. حتى أنك لم تبذلين جهداً فى إرضاء سيدة القرية .. وأيضاً لم تنجبين لى ولداً يكون سنداً لى فى الحياة .

ردت ثائرة ساخطة على حديثه :

وهل أنجبت مريم وحدى ؟ ، أو أنا من خلقتها ؟ هذه إرادة الله وحده كيف تعترض على إرادته هكذا ! .. إنك تعلم جيداً بأنك تتفوه بما لا يرضى الله لترضى هؤلاء الظالمين ، فلما لا تتذكر

انك ستقابل إله عظيم يومآ ما وتخبرهم بأنك جبان .. إن رجلآ مثلك لم تعلمه سيدة القرية المعنى الحقيقى للرجولة .

صـفعتها جدتى دون إنذار .. ثم كبلتها سـريعآ كخروف ينتظر الذبح .. وطلبت من رجال العائلة أن يلقوا بها داخل غرفة صغيرة تقع على أطراف القرية ..

إسـتيقظت ليلى من سًبات طويل من أثر الضـرب الذى تلقته من نواهل .. وفتحت جفنيها لتجد نفسـها وحيدة بغرفة صـغيرة مظلمة ، يكاد يصـل إليها شـعاع خافت من نافذة صـغيرة فى أعلى الحائط .. لم يكن ثمة علامة لوجود أشـخاص .. سـوى أصـوات متقطعة تترامى اليها بين الفينة والأخرى لأشـخاص خارج الغرفة ، يبدو انها تفصـلها عنهم مسـافة طويلة بعيدة عن غرفتها .. مضت تتلمس الطريق وهى تكاد تستطيع السير .. حتى وصلت الى الباب ، صاحت بأعلى ما تمتلكه من قوة لتطلب المساعدة .. لكن صياحها بات بدون جدوى .. فعادت لتجلس مكانها بيأس وإسـتسـلام .. فى إنتظار فرجآ قريبآ .. أو أن يحدث الله أمرآ .. لم تلبث ليلى طويلآ فى ظلمة غرفتها ، حتى داهم غرفتها شـيخآ خمسـينيآ دمث الوجه .. يرتدى جلباب أبيض مثل ما يرتدونه أهل القرية .. لم تكن ليلى تعرفه مسـبقآ .. فإعتقدت بأنه فردآ من عائلة حامد قد داهمها ليبرحها ضـربآ ، أو يقتلها ويتخلص منها للأبد .. فبدأت تتفوه بكلمات غير مفهومة وهى تحاول الإختباء خلف منضدة صـغيرة بالغرفة .. إقترب منها الشيخ بهدوء و ربت على كتفها براحة .. ولكن ليلى لم تطمئن له خشية أن يؤذيها ..

– أتوسـل إليك الا تؤذينى ، فأنا لم أكن أعلم شـيئآ عن قوانين القرية ، فقد أخطأت فى حقكم جميعآ .. لا تؤذينى .

– رد الشيخ مبتسماً بهدوء .. لا تخافى يا إبنتى ، فأنا أعلم ما تعانيه مع تلك العائلة .

– إطمأنت له ليلى ولكنها تراجعت خوفاً من أن يكون واحداً من عائلة نواهل .. ردت بتردد : وكيف علمت بما أعانيه معهم ؟

– أنا والد المرأة التى ثورتى من أجلها .. المرأة التى رفضـــت الزواج بعد وفاة زوجها ولكن تلك العائلة أرغمتها على الزواج من رجل يعانى من مرض نفســى .. إنها أرســلتنى إليك لأســاعدك على الفرار من القرية ؟ .. هل ترغبين فى مساعدتى ؟

– ردت بلهفة ؛ كعطشـــان يلهث خلف الماء .. نعم .. نعم أحتاج أن أبتعد عن تلك القرية .. ولكن كيف سنخرج من هنا بينما هناك رجالاً فى كل مكان حول الغرفة ؟

_ لا يوجد أحد بالخارج يا أبنتى ، ولكنهم وضـعوا مفتاح الغرفة بالخارج ، لا أعلم لماذا وضـعوه هكذا ؟ ولكن لا بأس .. هيا بنا لنخرج من هنا .

مضـى الشيخ ممسكاً بيد ليلى فى ترقب حتى بلغ الى باب الغرفة وفتحه .. لتتلقاهما سيدة القرية ويحاوطها بعض رجال العائلة وإبنها حامد .. ينظرون لهم فى صـــمت .. تراجع الشـــيخ وليلى بتوجس ..

أمرت سيدة القرية أحد رجال العائلة بأن يصـيح بقوة معلناً خيانة ليلى لزوجها مع ذلك الشـيخ .. وأنهم شـاهدوهما بالجرم المشـهود سـوياً .. صـاح الشـيخ وليلى فيهم بأن لا يفعلوا بهما هكذا .. ولكنهما لم يصـيحا ويتوسـلا طويلاً للسيدة نواهل .. فقد إنتشر الخبر كالنار فى الهشيم .. وبات أهل القرية يعلمون بما فعلته ليلى بزوجها .. فجمعت نواهل أهل القرية جميعاً لتوثق ما شـــاهده

رجالها وولدها على جريمة الزنا بين ليلى والشيخ .. وقفت بصلابة أمام الجميع معلنة بأن زوجة إبنها خانته مع ذلك الشيخ الذى يدعوا الجميع الى الفضيلة بينما هو يمارس الفجور معها ..

– لقد كانت زوجة إبنى جزءآ من عائلتنا ، ولكنها تنصلت من التقاليد والعادات وحتى الأديان السماوية .. وغدرت بزوجها وطفلتها ، ودنست عائلتها بخيانتها .. ولكن عائلتنا لن ترجمها كما نفعل مع نسائنا لأنها لم تكن يومآ جزءآ من العائلة ولا حتى إمرأة من سيدات القرية ، فلن تطبق عليعا قوانينا ، بل سنتركها ترحل فى سلام وهذا من شيم الكبار ..

صاحت ليلى فى الجميع تدافع عن شرفها ولكن دون جدوى .. كان مصيرها محتومآ منذ وصولها الى القرية ولكنها لم تكن تعلم بأن مصيرها سيكون أسوأ مما تعتقد .. إستعدت للرحيل من القرية وهى تطالب بإبنتها ، ولكن الجميع وقف ضدها متجاهلين أمومتها ، ينهشونها بألسنتهم قاذفينها بالخائنة ..

غادرت ليلى تلك القرية يائسة ، تحاول أن تلملم شتات روحها ، عادت للمدينة حيث الحرية التى سلبها منها حامد وعائلته .. تركت كل ما كانت تملك فى حياتها لهم ، حاولت أن تأخذ معها رضيعتها مريم معتقدة بأنها ستكون عوضآ لها عما إقترفه حامد وعائلته فى حقها ..

ولكن عائلة ريفية كتلك التى ينتمى لها حامد ليست كمن يتركون أطفالهم ليترعرعوا بعيدآ عنهم ، مع إمرأة خائنة إختارت أن تكفر بعاداتهم .. لم تربط بينهم وبين ميم عاطفة ليتمسكوا بها ويسلبوها من ليلى ، ولكن أرادوا أن يحطموا ما بقى من ليلى .. فأعلنوا عليها حربآ لن يخسروها مهما كلفهم الأمر .. إنهم لن يحتاجون ان يخرقا القوانين ليفوزوا بطفلتهم الرضيعة ، بل هم يؤمنون بأن تلك الطفلة هى حقآ وملكآ لهم .. وإنها سوف تُربىَ بقوانيهم التى سوف تصنع منها

فتاة صـــالحة حســـب معتقداتهم .. ولكنهم فى نظر ليلى يحاربونها بلا رحمة ،و حربهم لأمتلاك الطفلة حرباً تفتقر الى العدل .. فإعتقاد ليلى بأن زوجها سوف يكون سنداً لها إن ساءت الأمور ، كان إعتقاداً خاطئاً ، وأن أحلامها أصبحت سراباً ..

فهو شاهداً على تعرض شرف زوجته للظلم أمام عينيه ، كان كافياً لها أن تشعر بقسوته وكرهها له ..

تكابلت عليها الظروف ، ووضـعها القدر فى طريق لا نهاية لها سـوى الألم ، فإختارت أن ترحل من تلك القرية التى أجبرها الجميع فيها على ترك رضـيعتها .. لم تأخذ معها شـيئاً من أغراضـها ســـوى قطعة من ملابس طفلتها "مريم" لعل قدرها يجمع بينهما يوماً .. وتركت خلفها إرثاً من الذكريات التى ستعيش بها حتى تلتقى يوماً بمريم .. لم تكن تلك نهاية أقدار مريم بل بدايتها ..

لم يمكث حامد طويلاً فى القرية بعد رحيل ليلى .. فقد فارقته الطمأنينة برحيلها .. يســتقظ ليلاً وهو يأن من تلك الكوابيس التى تلاحقه منذ رحيلها .. لم يكن يعانى بصـــمت بل كان يخبر صـديقه سـمير بكل ما حدث .. فهو صـديق طفولته وكاتم أسـراره .. لم يعيش "سـمير" فى القرية طويلاً ، بل تمرد على قوانينها سـريعاً ورحل مع عائلته الى المدينه ولكنه كان كثير التواصـل مع حامد وظلا أصدقاء حتى بعد أن غادر القرية ليعود للمدينة مرة أخرى .. لقد كان يعلم العم سمير بأن حامد يعانى من صـــراغ داخلى بين ما تربى عليه فى القرية من عادات وبين ما يحاول أن يعيشـــه فى المدينة من تحرر .. حاول أن يقدم له النصـــيحة مراراً فى أن يختار أن يعيش فى القرية بعاداتها وبين المدينة بتحرر ســـاكنيها .. لكن حامد لم يســـتطيع أن يتخطى صـــراعاته الداخلية وتوهم بأنه يمكن أن يجمع بين قوانين القرية وتحرر ابناء المدينة .. لقد كان مجبراً على

العمل بأحدى الشركات فى القاهرة ، فهو لا يجيد العمل بالزراعة كما يفعل أفراد عائلته فى القرية .. لم يكن ينتظر أن تبتسم له الحياة فى تلك المدينة ، بل كان يشعر بأنه قد فقد شيئآ كان يمتلكه وهى ليلى ، فهى كانت الإثبات الوحيد على أنه كاد أن ينجح فى الحصـول على كل شـئ يرغب فيه ، عاد الى القاهرة وترك والدته التى يتوارى خلف قوتها ونفوذها ..

كان عليه أن يأخذ معه ذكرياته مع ليلى التى شـــهدت عليها تلك القرية ، والعودة بها مرة أخرى للمدينة .. ولكنه حمل معه ايضـآ حقيبته التى إمتلأت بملابس القرويين التى لا تناسـب المدينة ، ومعه مريم التى زاغ بصـرها تبحث فى كل مكان عن ليلى .. معتقدة بأنها سـتجدها يومآ ما فى تلك المدينة الكبيرة لتخلصها من ذلك السجن الذى تركتها به ورحلت ..

ولكنها لم تكن تعلم بأن ما ينتظرها فى تلك المدينة سـيكون أشـد ظلامآ من ما مضـى .. وأن والدتها التى كانت ترغب ان تجدها فى تلك المدينة سـتكون الصـورة التى سـتلتصـق بها طوال حياتها ، وأنها ستظل تدفع ثمن زواج ليلى من حامد ..

لم يتعذب حامد بعد رحيل ليلى عنه ، بل أيضـــآ بات يتذكرها بأنها خائنة أو "ربما يحاول إقناع عقله بذلك" ، خوفآ من أن يصب غضبه طويلآ على نفسه ويلومها مرارآ .. لم يجد متنفسآ لمرارة وحدته سوى أن يصب غضبه على مريم دومآ .. فهى نسخة من والدتها كما كان ينظر لها دائمآ .. فكان يأسرها بالمنزل طوال الوقت .. يحيطها بخوفه عليها من أن تسلك طريق ليلى مجددآ .. فلم تكن مريم تشـــعر بأنها طفلة كباقى الأطفال .. بل تحملت أن تدفع ثمن صـــراعات حامد الداخلية .. يصـفها بشـبيهة والدتها وبإنها سـتكون متحررة مثلها وأنه كان يجب عليه وأدها بعد

رحيل والدتها .. فهى لن تكون جزءآ من عائلته يومآ ، إنهم يرفضـــون أن تكون جزء منهم لأنها إبنة ليلى فقط ..

لم تكن تفكر مريم سـوى فى اللعب مع الأطفال ، ولكن حَرم عليها الشـعور بطفولتها .. فيجبرها حامد أن تظل أسـيرة فى غرفتها دومآ لم تمتلك العديد من الألعاب مثل الأطفال بل كانت تلعب بدًمية واحدة إشـتراها لها العم سـمير .. فكلما أهتم بها العم سـمير ، كلما شـعرت بأنها تحتاج لوالدها ، فتحاول مريم أن تتقرب منه .. فتنتهز وقت عودته من عمله لتركض نحوه لتحتضـنه ، فيزجرها .. قائلآ :

إبتعدى " أنتى إبنة الشر " .. ليتهم تركوها تأخذك معها حينما قررت الرحيل .. سأعيش موصوماً بكما طوال حياتى .

تعود مريم لغرفتها تبكى دون أن تدرك ماذا إقترفت من ذنب ليعاملها والدها بكل تلك القسوة .. ثم تخرج من غرفتها مرة أخرى .. تمشـى على إسـتحياء ، لتحاول أن تتقرب منه مجددآ تسـتجدى عطفه وإهتمامه بها ..

– ماذا فعلت معك يا أبى لتعاقبنى ؟ .. أخبرنى بذنبى وأنا سوف أصححه من أجلك حتى ترضى عنى .

نظر لها حامد بشـفقة للمرة الأولى .. ثم شـعر بأن لا فائدة من إسـتعطافه لأنه لن يشـعر نحوها بعاطفة ثم رد بقسوة قائلآ :

– لا تقتربى منى مجددآ فأنا لن أحبك يومآ .. أنا أكره الفتيات .. وأكره والدتك التى أنجبتك وتركتك لى ورحلت

عادت مريم الى غرفتها وهى تبكى بصـــمت .. حملت دًميتها وتحدثت معها .. إنها صـــديقتها الوحيدة .. فلا يوجد غيرها تبوح له بما يؤلمها ..

– إنه لن يحبنى أبدآ .. هل تعتقدين بأن والدتى تحبنى ؟ .. أتمنى أن أجدها لتخبرنى إذا كانت تحبنى أم لا ..أجل إنها بالتأكيد تحبنى فأنا لم أغضبها يومآ .. ولكنى أيضآ لم أغضب أبى يومآ ولكنه لا يحبنى .. إحتضنت دًميتها قائلة " لا بأس يا صغيرتى فنحن سوف نحب بعضنا بعضآ . "

اللوحة الرابعة

فى إحدى شــوارع القاهرة الهادئة ، والتى يملؤها الخوف .. مكث جميع ســكانها فى منازلهم بعد حدوث زلزال مفاجأ .. زلزال لم يحدث فى مصــر مثله ســابقآ .. زلزالآ أصــاب القلوب رعبآ .. وغمر العقول بالتسـاؤلات .. بعضـهم يتسـائل ، هل تلك هى نهاية العالم ؟ .. والأخرون يؤكدون أن هناك خطرآ حقيقيآ سـوف يصـيب مصـر .. هو زلزالآ إسـتطاع هدم منازل مصـر القديمة .. ولكنه لم يسـتطيع تغير عقولآ سـيكوباتية .. كانت الشـوارع خاوية تمامآ .. شـوارع لن تسـمع فيها ســوى أصــوات الحيوانات الضــالة وهى تحاول إيجاد مكانآ آمنآ او طعام .. لا يرغب أحد فى الخروج من منزله سـوى لشـراء إحتياجاته الضـرورية من طعام .. بينما كانت "مريم" الطفلة ذات العشر سنوات ، تحاول التسلل خارج منزلها الذى كانت دائمآ تراه شاسعآ برغم صغر مساحته .. وباردآ برغم إكتمال حوائطه .. أرادت ان تتســلل لتعلب مع بعض الأطفال الذين يتســللون يوميآ أيضآ خارج منازلهم تاركين خلفهم خوف الأهل والجيران من حدوث زلزالآ آخر قد يتسبب فى هدم منازلهم ..

لم تبقى مريم وحيدة طويلآ مع دُميتها ، فقد زرعت محبتها فى قلوب جميع الجيران والأصدقاء .. يعاملونها كطفلتهم المدللة ، يعشـــقون النظر الى براءة وجهها .. إنها فى دواخلهم الإبنة التى يرغب الجميع ان يشْــبهها اولادهم .. فقد كانت هادئة معظم الوقت ومطيعة ولكنها إذا تدثت فتتحدث بلباقة وذكاء يفوق عمرها بســنوات .. تســللت مريم خارج منزلها كعادتها دون معرفة والدها .. تنتظر قدوم بعض الأطفال حتى يتشــاركون طفولتهم البريئة باللعب فى هدوء خوفآ من

أن يســمع ضــجيجهم أحداً .. إنتظرتهم طويلاً حتى شــعرت بالملل ، ولكنها قررت أن لا تعود لمنزلها الذى تملؤه الرتابة خوفاً من أن يمنعها والدها من الخروج واللعب مع الأطفال مرة أخرى ، كما يفعل معها كل مرة ..

ولكن طفلته لم تكن ترغب ســوى فى اللعب مع الأطفال ، وأن تنطلق نحو طفولتها ولا تبالى بأفكاره عنها ..

تسللت خارج المنزل رافضة الرجوع قبل أن تشبع رغبتها باللعب .. وكأن القدر يخبأ لها شيئاً لم تتوقع حدوثه ..

توجهت الى بيت جيرانهم بخطوات هادئة تبحث هناك عن اصدقائها .. سارت فى رواق المنزل الذى كانت إضاءته خافتة .. ولكنها لم تخاف من الظلام بقدر ما كانت تخاف العودة الى منزلها والوقوف أمام والدها .. سارت بخطوات طفلة لا تعرف سوى ان العالم صغير .. ربما أصغر من المنزل الذى تسكن به .. أرادت أن تسرق لحظة سعادة مع بقية الأطفال قبل أن تعود لتعنيف والدها لها .. ولكن قدرها كان له كلمة أخرى .. فقد أراد أن تجرب شــيئاً أخر لا يقل ألماً عن التعنيف .. وصلت الى منتصف الرواق .. تفاجأت بشاباً عشرينياً من أبناء الجيران يمسك بها ليســألها عن باقى الأولاد .. لم تكن برائتها رادعاً له فى نواياه .. بل كانت حافزاً له لينقض على برائتها دون الخوف من المسؤلية ، لأنه يعلم بأن لا أحد سيعلم بما ينوى أن يفعله معها .. وأنها أكثر برائة من أن تبوح بشئ لأحد .. كان مخططاً أن يفتك بفريسة صغيرة لا تمتلك اى قدرة على فهم ما يرغب به ذلك الذئب .. وفى الظلام حاول تجريدها من ملابســها ليفترس جســدها بدون رحمة .. يغتصب برائتها ، ويتلذذ بجسدها الصغير ويشبع أمراضه المكبوتة .. لم تفهم ببراءة

الأطفال ما يحاول فعله ، ولكنها شـعرت بأنه لا يجوز أن يفعل ذلك معها .. صـاحت بصـوتها الطفولى الذى لا يكاد يسـمعه الجيران ، ولكن بدون أمل فى أن ينجدها أحد .. لم يسـمعها سـوى هو ورغبته فى إغتيال براءتها .. أعادت الصـراخ مرة أخرى بصـوت أعلى .. ولكنها لم تلبث أن تكرره حتى أغلق فمها سريعآ بيده كانت تحاول تكبيلها من كل الجهات ، محاولآ أن ينهى ما أراد فعله بها .. حتى كادت روحها تختنق .. ولكن قدرها كان أقوى منه ، لم يكن يعلم بأن أحد جيرانه يراقبه من خلف الأبواب المغلقة ، ينتظر حتى يلتقطه بالجرم المشـهود .. خرج مسرعآ ليغيثها من بين براثنه محاولآ سـتر جسـدها الصـغير وهى ترتجف رعبآ ووجها شـاحب من الخوف ، نظر الرجل لوجه مريم الشـاحب وكأن الشـاب كاد أن تقتلها من شـراسـة تشـبثه بها .. أراد جاره أن يرحمها من قدرآ كانت ستعيش مُعذبة به طوال حياتها ..

أمسك الجار يدها برفق يتفحص وجهها ، لكنه صمت لثوانى ، شاردآ .. يفكر ماذا يجب أن يفعل معهما ؟.. هل يخبر عائلتهما بما حدث ، أم يتركهما يرحلان فى صـمت ؟ .. ماذا سـتفعل تلك الطفلة بعد عودتها الى منزلها ؟ .. ظل يفكر لا يعلم ماذا عليه أن يفعل ! .. لكنه يعلم بما تعانيه مريم مع والدها كباقى جيرانها .. جميعهم بات يعلم بأن حامد يقسو عليها دائمآ .. فخشى بأن يعاقبها حامد على جرم لم تفعله .. فقد قرر ان يُخبر الطفلة بأن لا تبوح لأحد بما حدث ، وأن تنسـى ما حدث معها .. حاول أن يقنعها بأن الشـاب كان يحاول اللعب معها .. نظرت له مريم فى دهشة ، مرددة بصوت مرتعب وجسدآ ينتفض من شدة الخوف ..

– إنه لم يكن يلعب معى ، إنه أراد أن يلمس جسدى ولا يحق له ذلك ..

سـمعها الرجل وكأن لحديثها صـدى يتردد بكل مكان .. إندهش الشـاب من حديثها القوى برغم خوفها الشديد الذى كان واضحآ فى نبرتها .. ربما لم يتخيل أنها رغم صغر سنها الا أنها لقنته درسآ فى حقوقها كطفلة ..

لم يجد الجار طريقة سـوى أن يحررها من بين يديهما ويترك لها الحرية لتفعل ما يحلو لها .. وتنفذ ما تفكر به .. حتى إن كان قرارها أن تخبر الأهل والجيران بما حدث ..

ركضت مريم هاربة من المكان الذى علمتها فيه الحياة درسها الأول .. أسرعت تخبر والدها بما حدث معها .. قبل أن تدق الباب ، وقفت فجأة تفكر وقلبها ينبض خوفآ .. كيف ستخبره بذلك .. إنه لن يُصدق حديثها ، ولن يقتنع بأنها ليست مُذنبهوإنها مجنى عليها ..

قررت أن لا تبوح بما حدث لها خوفآ من أن يترك والدها الجانى ويعاقبها هى .. دخلت المنزل مطأطأة رأسها وكأنها هى من قامت بأبشع الجرائم .. تسير بوجه شاحب ونبضات قلب متلاحقة .. شاهدت العم سمير يجلس فى إنتظار عودة حامد من غرفته .. فكرت مريم بأن لا أحد سفهم ما حدث معها ويؤازرها سـوى العم الخلوق سـمير ، فهو الفقط من كان يهتم بها ويشـعر بأنها تعانى مع حامد .. أنصت لها بإهتمام ولكنه لم يتحمل أن يحدث لها مكروه وأخبرها بأن الشاب يجب أن يُعاقب على ما حدث منه ..

أخبر حامد ما حدث مختصرآ تفاصياه .. " لم تكن مريم تلعب فى غرفتها ، ولكن تسللت خارج المنزل دون علم أحد فتحرش بها شابآ من الجيران " .. إنتفضت مريم وأصبحت ترتجف خوفآ مما سيفعله بها والدها ، ترتجف وكأن العالم كله تكابل عليها وعصف بها الزمن الى وادى الظلم ..

لم يفكر حامد طويلاً فى عقابها .. قام بصفعها بكل قوته متهمها بأنها ليست إبنته الشرعية ، بل هى إبنة الخطيئة ، إبنة إمرأة متحررة مثلها وما فعله الشاب هى السبب فيه ..

إستسلمت مريم لصفع والدها ولم تنهمر دموعها ، بل كظمت دموعها ومشاعرها وألمها .. إستسلمت ليداه التى تحاول تحطيم جسدها الضعيف بقوتها .. تنظر لعينيه التى إمتلأت بالقسوة ، وإتهامها بأنها لم تعد طفلته بل هى شبيهة والدتها الخائنة .. سجنت دموعها كما سُجنت هى فى قبو الماضى الذى سيظل يلاحقها مدى الحياة .. ولم يكن كما تعرضت له مريم من تحرش او صفع أو بُغض والدها لها ، هو أسوأ اقدارها ، بل كان بداية أقدارها التى تكالبت عليها مُعلنة بداية سلسلة من الأحداث القاسية ..

فربما لم تحمل السنوات العشر الأولى فى طفولة مريم بؤساً أقوى من أن تتعرض للتحرش .. فتلك الحادثة كانت النواة التى وضعها القدر بحياتها حتى تتعود على الألم .. أو تتعود على قسوة الحياة التى أبت أن تمنحها إبتسامة حتى لو عابرة ..

كانت حياتها مُسيَرة ، لا حيلة لها بأن تقود مسيرة حياتها .. فهى فى نظر والدها وعائلته ، مجرد نواة لإمرأة خانت زوجها ورحلت تاركة إياها .. بينما هى ظلت بين براثنهم .. حملت هى كل ذنوب الأم التى لم تقترفها .. فعاملها الجميع كمسخ تنبذه العائلة .. وتعلم بأنها ستعيش وهى تحمل إرثاً من ذكرى الأم التى لا تعرف حتى ملامحها .. تمنت كثيراً بأن يمنحها القدر صدفة عابرة تلتقى فيها بوالدتها .. لتقص عليها ما عانت منه فى غيابها .. أو لتخبرها بأنهم كانوا ينعتوها بأنها إبنة الخائنة .. كانت ترغب أن تعانقها ولو لمرة واحدة .. تسألها عن حقيقة ما لا تعلمه عن زواجها بحامد .. أو أن تجد شاطئ من الأمان ترتكز عليه .. او أن يمحو من داخلها

شعورها بالغربة وسط تلك العائلة ، فهى تشعر بأنها لا تنتمى لهم كما كانت تشعر ليلى تماماً ، تشعر بأن ليلى تركتها مع أغراب لا تعرفهم .. وأن حامد ليس الأب الذى يصلح بأن تسكن بين ذراعيه لتختبأ من ظلم تلك العائلة ..

لم تكن تطمح بشئ أكبر من شعور بالدفأ فى قرية لا يرحم أهلها الغرباء .. تنتظر حضناً دافئاً من أب لا يعرف سوى ما تمليه عليه عائلته .. كانت تحلم بأن تمسك يد والدتها وتسير بفخر وسط تلك القرية .. ولكنها إقتنعت بأن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، وأن أحلامها أبعد من نجوم السماء ..

***

عاد حامد الى قريته ليتوارى خلف عائلته هروباً من مسؤليته تجاه إبنته التى ضاق بها ذرعاً .. إجتمع بوالدته التى كانت تجلس على مقعدها الفخم وكأنه عرش ملكى .. يشكو إليها مرارة وحدته ، وما يعانيه مع مريم .. وكأنها سبباً فى جميع معاناته .. كانت مريم تسترق السمع وهما يخططان

– يجب أن تتزوج مرة أخرى يا ولدى .. إن هذه الطفلة يجب أن يكون لها رادع ، وحتى تتعلم قوانينا .. وأنا إخترت لك عروس إبنة حسب ونسب ، وستكون لك زوجة مطيعة .. لقد إخترت لك " أحلام إبنة الشيخ توفيق " إنها فتاة مطيعة ويتحدث الجميع عن أخلاقها وسيرة عائلتها الطيبة .. وجميع رجال القرية يتمنون الزواج منها .

– ولكنها إمرأة مُطلقة ولا تســتطيع الإنجاب يا أمى ، كيف يمكن أن أتزوج من إمرأة تزوجت من رجلآ آخر ؟ ، وأيضآ عمرها يفوق عمرى بخمسة أعوام ؟!

– لا يهم كل هذا ، فأنا يكفينى أن الجميع يتحدث عن أخلاقها .. أكملت حديثها بتهكم " فأنا لم أنسى حتى الآن سوء إختيارك لفتاة من المدينة ،وما حدث لنا بعد قدومها الى هنا" .

رد حامد بصوت خافت وهو يلتفت يميناً ويساراً حتى لا تسمعهما مريم .. نحن نعلم جيداً بأنها لم تخوننى يا أمى .. ولم تكن تعرف فى الأصل من هو الشيخ الذى اتهمتها بخيانتى معه .. ونحن نعلم أيضــآ بأن ليلى لم تقترف ذنباً ، لكن عاداتها فقط لم تناســب عاداتنا ، وأنتِ أجبرتِ رجال العائلة أن يتهموها بالخيانة .. جميع ما حدث لها كان بمشيئتك أنتِ يا أمى .. فلا تتنصلين مما حدث لها .

صُـدمت نواهل لسـماع ما قاله حامد لها ، وكأنه أراد أن يذكرها بأن كل ما يحدث له هى سـبب فيه وليســت ليلى أو مريم .. ربما كان ضــميره يقظآ فى تلك اللحظات حتى يســاعد القدر مريم لتتأكد أن والدتها منزهة عن ذلك العار الذى إلتصـق بها ، ولحق بمريم من بعدها .. فحاولت أن تبدل الأدوار بينها وبين حامد وتعود هى لمقعد الأبرياء .. و ردت بإستهزاء :

– لم تكن مشيئتى أنا وحدى يا ولدى .. ألم تكن تلك هى رغبتك انت أيضآ يا ولدى ؟

صــمت حامد مطأطأ رأســه ، فهو كعادته لم يســتطيع التفوه ببنت شــفة مع والدته ســيدة القرية والمســـيطرة على كل فرد فيها .. انتهى حديثهما بموافقة حامد على الزواج من .. ولكن لم يكن حديثهما عادياً على مســـمع مريم ، بل كان مفاجأة لها .. فلطالما حاولوا إقناعها بأن والدتتها

توفت منذ زمن بعيد .. ولكن كانت فرحتها غامرة بزرع أمل جديد فى حياتها ، لإنها علمت بأن والدتها مازالت على قيد تلك الحياة ، وأن هناك أمل فى لقائهما يومآ ..

لم تنتظر جدتى طويلآ لتزوج والدى .. كانت الليالى ما قبل الزفاف طويلة عليه ، فشعوره بأنه لا يعرف عروسه مسبقآ حسب عادات القرية ولا يعلم كيف تفكر وكيف تتصرف ، كان يرهقه هذا التفكير كثيرآ .. ولكن ليلة زفافهما كانت تشبه حفلات زفاف المشاهير ، فقد تجمع الأهل والجيران من كل أنحاء القرية والقرى المجاورة فى منزل جدتى وقاموا بمراسم الإحتفال وتقديم ولائم طعام فخمة الى الحضور .. كانت جدتى سعيدة لدرجة أنها كانت توزع أموال على الحاضرين ، مما فاجأهم كثيرآ بتصرفها هذا .. كانوا أعمامى يستشيطون غيظآ من إهتمام جدتى بوالدى .. إنها فى نظرهم تنفق ببذخ شديد على إبنها المدلل الذى لم يبذل مجهودآ فى إدارة شؤنهم يومآ ، بينما الحاضرين كانوا فى غاية السعادة مما يقدم لهم من أموال وولائم " هذا شئ طبيعى " .

أما أنا فمشاعرى كانت مختلطة ، ما بين ترقب وأمل جديد وخوف .. خوف من المجهول .. كيف ستتعامل معى زوجة والدى ؟ .. هل تحبنى ؟ .. هل ستساعدنى أن أبحث عن والدتى ؟ .. أشعر بأن هناك تغييرآ كبيرآ ستتحول بسببه حياتى كليآ .. أو بالأحرى بدأت أفهم ما ستؤول إليه حياتى ..

سافر والدى وزوجته الى القاهرة لقضاء عطلة زواجهما .. او كما يسمونه سكان القاهرة " شهر عسل " .. بعد مرور أسبوع ممل .. عاد والدى وزوجته للقرية .. كان الجميع فى انتظارهما بشغف شديد ، وكأن حامد وزوجته هما أهم إنجاز للعائلة .. فزوجته هى الزوجة التى تناسبهم وتناسب عاداتهم .. لا أعلم ما هو المميز فيها ، فقد غرق والدى فى حبها سريعآ ، أو بما لإنها

مطيعة كما قالت جدتى عنها .. " أو ربما لها من إسمها نصيب " فأحلامها كانت تصل عنان السماء ، وقدرتها على الوصول إليها كبيرة .. فبرغم حب والدى الشديد لها ، الا أنها لم تبادله الحب بقدر ما كانت تحب نفسها أكثر ..

فهى أرادت بذكاء أن يأخذ زواجها نمط مختلف بين أفراد عائلته ، جمعت بين تحرر ليلى وخجل بنات القرية ، فأستطاعت بمرور الوقت أن تفرض سيطرتها على الجميع ، تارة بقوتها وتارة أخرى بحديثها المعسول "وما أكثر حديثها المعسول" الذى كان يبتهج لسماعه كبار وصغار العائلة ..

مرت سنوات عجاف على حياتى بلغت فيهم عامى السابع عشر ، وبلغت أحلام الى أحلامها .. لم تكن تخطط للسيطرة على حامد فقط ، بل أرادت أن تسيطر على جميع أفراد العائلة .. فإستطاعت زوجة الإبن المدلل أن تنجح سريعآ فى الوصول الى قلب جدتى والسيطرة على تفكيرها .. وأصبحت كلمتها نافذة على الجميع .. فسريعآ ما وضعت جدتى بيديها كل ما تملكه العائلة من أوراق وأراضى .. وأصبحت هى المتحكم الوحيد فى قرارات العائلة ، وأوامرها يجب على الجميع تنفيذها .. الا أنا فقد كنت دائمة التذمر والأعتراض على كل قرارتها ، كنت أرفض دومآ أن تجعلنى كالدمية بين يديها .. ولكننى لم استطيع الصمود طويلآ أمام نفوذها وقوتها ، فلم يكن أمامها غير طريق واحد لتتخلص منى سريعآ هو أن تكتب لى نهاية تليق بكونى إبنة زوجها ، نهاية تشبه نهايتها كثيرآ فهى تعلم بأنها وأنا وجميع نساء القرية متشابهات ، وجميعنا مصيرنا محتوم ، ولكنها الوحيدة التى فازت بين نساء القرية وخرجت عن الطريق الذى يرسمه رجال القرية لنساءهم ، فأصبحت هى سيدة القرية عوضآ عن جدتى ، أما جميع نساء القرية الآخرين فعليهم

السمع والطاعة .. لم تنتظر طويلآ لتتخلص منى ، فأخبرت والدى بما تخطط له سريعآ ، بأننى كبرت بما يكفى لأتزوج ..

– إنك لا تفكر مطلقآ فى إبنتك يا حامد .. أعلم أنك لا تحبها ، ولكنها أصبحت شابة يافعة ويجب عليك أن تفكر فى مستقبلها .. فهى أكملت تعليمها الثانوى .. وقريبآ ستطلب منك قبول دخولها الجامعة .. فلما لا نغلق كل الأبواب ونرتاح من مسؤليتها ونزوجها سريعآ ، حتى لا تأخذ طريق والدتها ، فربما حينها ستتحمل عارآ أكبر من عار والدتها .

إقتنع والدى بحديثها ، فهى إستطاعت أن تلقى ظلال قوية على علته الداخلية ، فخوفه من أن أصبح شبيهة والدتى كان كالشبح الذى يطارده دائمآ .. فما لبث أن أنهى حديثهما حتى قرر تزويجى لأحد شباب القرية .

أخبرنى والدى بما قرره .. لم أصدق فى البداية بأنه يعنى ما يقول ، كررت سؤالى عليه :

– هل تريد تزويجى حقآ يا أبى ؟ .. هل تريد تزويجى من شابآ لا أعرفه ؟

– رد بشراسة حاسمآ قراره : نعم ستتزوجين من شابآ تختاره لكِ زوجتى .

– اتوسل إليك يا أبى الا تفعل معى هذا .. أتوسل إليك الا توأدنى وانا على قيد الحياة .

– صفعنى بقسوة قائلآ : أتريدين أن تسلكى نفس الطريق التى سلكته والدتك ؟!

أنهرت باكية .. جسوت تحت ركبتيه ، أمسكت بهما لأتوسل إليه بأن لا يلقى بى فى قبر لم أجهز نفسى له حتى ..

– أسـتحلفك بجدتى يا أبى ألا تزوجنى لرجل من رجال القرية ، فأنت تعلم ما يفعله رجال القرية مع زوجـاتهن .. يـا أبى أعلم بـأنـك لم تحبنى يومـآ فلتعتبرنى فتـاة غريبـة عنـك تطلـب منـك أن ترحمها .

حضرت جدتى التى أصبحت تتكأ على عصا لتستطيع السير محنية الظهر .. ختمت توسلاتى وصرامة والدى بقرار حاسم لا رجعة فيه ..

–. ليس من شأنك أن تقبلى أو ترفضى الزواج ، فقد فعلت والدتك مثلما تحاولين فعله الأن فحدث لها ما لم يخطر على عقلها يومآ .. اليوم إنا سوف أمنحك الرحمة وأكتفى فقط بتزويجك .

نظرت زوجة أبى لهما مبتسمة بخبث وكأنها تخلصت من ورمآ خبيثآ منتشرآ فى جسدها ..

" لم أنسى تلك الإبتسامه " يومآ .

لم يمر شـهر على قرار والدى وزوجته .. وقد أتمت ما خططت له زوجته .. إختارت لى عريسـآ من أبناء القرية يفوق سنى بخمسة عشر عامآ .. لم يكمل دراسته الإبتدائية .. لم يبقى لى شيئآ فى بيت جدتى " لم يكن لى شيئآ فى الأصل فى بيتها "

***

بالرغم من مرور خمس ســـنوات على زواجى من " بدر " ، إلا أننا لم يربط بيننا ســـوى فراش يجمعنا بدون مشاعر .. لا نتحدث الا قليلآ ، فلم يكن بيننا يومآ لغة حوار مشتركة ، زواجى منه أشبه بسجين لا يرى أشعة الشمس الا نادرآ .. لا يتعامل سوى مع السجان .. فكنت أنا سجينته وهو السجان .. أشعر بأن روحى تتألم ولا أستطيع أن أحررها من هذا السجن .. فأكثر ما يؤلم الروح هى أن تعيش مسجونة بمكان لا تنتمى إليه ولا ينتمى إليها .. لا أحد يفهمنى سوى أوراقآ أكتب فيها ما يجول بعقلى وقلبى من مشـــاعر ، وبعض التجارب لكتابة روايات أعيش فيها مع أبطالها .. أتحدث أحيانآ مع أوراقى ، أبوح لها بما لا يمكن أن أبوح به لبشر .. فكيف أبوح لبشر بأننى فقدت كل ما أملك من أمل ؟ .. أو أبوح بأننى زوجة تعيش جسدآ بلا روح ؟ أو أن زوجى يعاملنى كإناء يفرغ فيه رغبته فقط ؟ " لا أملك القوة التى تمنحنى رفاهية البوح بألمى" فتعودت مرغمة أن أسرد لأوراقى ما يؤلمنى أو ما أتتماه .. إنها تفهمنى كثيرآ .. أشعر أحيانآ إنها تعانقنى لتخفف عنى الألم .. فهى تعلم بأن حياتى تسير ببطئ شديد .. ولكنى رضيت بقدرى حتى بات قلبى كقطعة حجر لا يشعر حتى بالليالى شديدة البرودة .. عندما أشاهد اهل القرية يمكثون فى منازلهم للأختباء من شراسة الشتاء وبرودته ، كنت أتعجب " لماذا لا أشعر مثلهم ببرودة الطقس ! .. يبحثون هم عن الدفأ فى منازلهم ، بينما أنا كنت أخرج للشرفة لأنطلع الى النجوم فى السماء .. أنتظر حين تنتهى الغيوم ليلآ وتفسح المجال لظهور النجوم .. فأتأمل نورها الصغير وأتحدث إليها .. هل يمكن أن أكون نجمة يرغب أحدآ ما فى أن يمســـك بى ؟ .. فدائمآ ما كنت أقرأ فى الروايات بأن العاشق يرى معشوقته كنجمة فى السماء .. بالتأكيد يراها كالنجوم من فرط حبه لها .. أما أنا فلم يحبنى أحد سابقآ .. ولن يحبنى أحد .. "إننى حتى لا أعلم كيف هو شعور الحب" .. ربما شعور العشق يشبه الشعور بالدفأ فى ليالى الشتاء .. أو ربما العشق هو الشعور الذى

يملأ أرواحنا بالأمل .. او ربما يكون العشق لمسة عابرة من طفل حديث الولادة .. لا ، العشق مؤلم ، فإذا إنتهت قصة عاشقان بالزواج فيصبح العشق مؤلم كألم المخاض .. لماذا لا أطلق العنان لخيالى بأن يعيش قصته الخاصة مع زوجى ؟ .. نعم ، يجب أن أمنح زواجى فرصة .. ربما تتغير حياتى ، أو أستطيع أن أجعله يحبنى ، أو يمنحنى فرصة أن أحبه .. سأترك خيالى يفكر كيف يمكن أن يحبنى ..

ركضت متحمسة نحو بدر حتى أخبره بأن زواجنا ينقصه الحب .. ينقصه أن نجد لأنفسنا وقتآ نقضيه معآ .. إننى يجب أن أتخلص من شعورى بالحرمان من الحب .. ويجب عليه أن يعوضنى عن ما مضى .. لم البث أن أكمل حديثى .. زجرنى بعيدآ عنه ورد بحدة :

– لا يعرف الرجال فى قريتنا ما تسموه عشق .. فالرجل يتزوج لتكون زوجته ملكآ له يفعل بها ما يشاء ، او حتى ليكسر لزوجته ضلوعها ، لتتعود على عاداته وتنجب له رجالآ أقوياء وليس رجال ضعفاء كالنساء .. إحذرى أن تحدثينى عن تلك الأشياء مجددآ .. والآن هيا بنا نذهب لغرفتنا حتى آخذ منكِ ما أريد ..

لا أعلم كيف مرت تلك الليلة بيننا ، ولكن كل ما أتذكره أننى تألمت .. تألمت كثيرآ وأنا بين ذراعيه ، وكأن لمسته لى تقتل كبريائى ، توأد أنوثتى .. شعرت بأننى مسلوبة الحقوق .. أن روحى تُغتصب من رجل لا أعرفه .. وأنا فى حالة إعياء شديدة ، وكأننى ألفظ أنفاسى الأخيرة .. كانت تلك الليلة من أشد الليالى وطأة على قلبى وعقلى ، بل وعلى روحى أيضآ .. أصبحت بعد تلك الليلة صامتة أغلب الأوقات .. لا يغرينى شئ فى تلك الحياة ولا تسعدنى كتاباتى التى كنت أغوص معها فى عالم آخر يسعدنى البقاء فيه .. أتذكر ان جميع أيامى باتت تشبه بعضها

.. حتى ثارت روحى فجأة .. أيقظنى ضميرى على صوته الذى كان يحثنى على أن أجمع شتات نفسى .. ألملم إنكساراتى وخذلانى من الجميع .. أن أعيد روحى لمكانها .. فبات صوت عقلى منافساً لى متحدياً صمتى .. ولكننى كنت أغتاله من داخلى مراراً .. كنت ألعم بأن لا مفر من قدرى ، ولن يغيره شئ حتى صوت عقلى الذى يصيح بداخلى كل يوم .. يصمت فقط حين أنام .. فكنت أسرف فى النوم حتى يسكت صوت عقلى .. لكنه أصبح يحاربنى .. يقتل صمتى وسكونى الطويل .. يؤلمنى حتى فى نومى .. حتى أيقظنى تلك الليلة وكأنه يمنحنى فرصة أخيرة لأسمعه وأتواصل مع روحى .. وأحافظ عليها ممن يريدون قتلها ..

فأيقظنى صوت عقلى مرغمة فى ليلة أخرى .. لا أعلم كيف إستيقظت هكذا فجأة .. أترجل من فراشى نحو المرآة المقابلة للفراش ..

شعرت بأننى شخص مختلف عن ما أنا عليه .. تلك المرة إستيقظت روحى .. أو قررت أن تثور .. أن تخرج من ذلك الصندوق ألأسود الذى سكنته لخمس سنوات فى زواجها .. وقفت أمام المرآة أتطلع الى وجهى بعمق لم أقوم به يوماً .. فأنا لم أتطلع الى نفسى فى المرآة منذ سنوات .. لا أريد أن أرى نفسى المتهالكة الضعيفة ..ولكنى تطلعت اليها تلك المرة .. بل تحدثت معها بقوتى المتهالكة ..

مرت السنوات دون أن أشعر بها ، لم يلفت إنتباهى يوماً ظهور بضع شعرات بيضاء فى مقدمة رأسى .. هل كبرت الى ذلك الحد ؟!بدأت ألمس وجهى وأنا أتسائل ..

هل بدأت تظهر فى وجهى تجاعيد وانا فى العشرين من عمرى أم انا يخيل لى هذا ؟ ..

أشعر أنى مشوشة .. حسناً سأعود للنوم مرة أخرى .. غفوت وأنا لا أبالى بما يجول بعقلى من افكار .. ولكنى فى صباح اليوم التالى لم أستطيع السيطرة على أفكارى متصنعة اللامبالاة .. وقفت مرة أخرى أمام المرآة أتفحص خصلات شعر ، أتسائل :

هل زاد عدد الشعيرات البيضاء ام اننى كنت أحلم بذلك ليلاً .. إنها ليست مجرد شعيرات غطاها اللون الأبيض لفتاة عشرينية .. بل هى علامات لتلك السنوات التى مضت .. علامات الألم الذى أحيا به منذ طفولتى .. حاولت أن أخفيه داخل صندوق أسود بداخلى .. ولكن يبدو أن شعرى رفض أن يخفى التغيرات التى حدثت له تلك السنوات .. ظهر ليخبرنى بأن ألمى أكبر من أن أحتفظ به بداخلى أكثر من ذلك .. يجب أن أتحرر من كل تلك القيود ربما أستطيع أن أتحرر من الألم ..

وضعت يدى على وجهى ، يبدو أن التجاعيد لم تسنح لها الفرصة لتسيطر على ملامح وجهى .. لم تفعل مثلما فعل شعرى ..

أبتسمت ابتسامة بائسة : لابد ان التجاعيد لم تكن قوية بما يكفى لتظهر على وجهى الذى لم يبتسم منذ سنوات ..

شردت لبرهة .. أشعر وكأن شيئاً ما يتحدث معى عبر المرآة .. يحدثنى بنبرة قوية محفزة :

– إستيقظى يا مريم ، فأنتِ مازلتِ تلك الفتاة التى لم تتزوج منذ خمس سنوات .. إنكِ لم تتزوجين ذلك الرجل الذى فرضته عليكى تلك العائلة .. لقد عاد صوت عقلى مرة أخرى .. إنه يحاربنى حرباً شرسة .. يحارب ضعفى ، ويقوينى على سكونى .. لا تستسلمى يا مريم فالفرصة مازالت أمامك لتعودى الى بيت جدتك ..

لا لا .. لن أكرر ما فعلته سابقآ .. مازلت أتذكر ذلك اليوم الذى ذهبت فيه لجدتى مستنجدة بها أطلب منها الا تجبرنى على العودة لزوجى .. إنه ضربنى ضربآ مبرحآ يا جدتى بلا سبب .

– اتريدين أن تجلبى لنا العار مثل والدتك ؟

– لكننى لم أشـــبه أمى يومآ .. إنها رحلت وأنا أتألم يا جدتى .. أســـتحلفك أن لا تجبرينى على العودة له .

إقتربت منى الجدة ونظرت بعينى نظرة ثاقبة وهى تردد .. تشـــبهين أمك تمامآ فى تمردها ، تشبهينها فى تصنعها للألم .. تشبهينها فى كرهها لعاداتنا .. هل تريدين ان تعودى لبيت والدك وتجعلين الجميع يتحدث عن ســوء ســمعتك ؟ ، ام تذكرينهم بأن لكِ أم خانت زوجها وتركت كل شــئ خلفها ورحلت ؟ .. نحن لا نملك لكِ حلول ، سوى العودة لمنزل زوجك .. ويجب عليكِ أن تحمدى ربك بأنه وافق على الزواج من فتاة والدتها مثل أمكِ ..

كانت كلمات جدتى حادة وقاسية ، حينها أدركت بأننى لن أنجو من ذلك الزواج ..

اليوم أنظر لنفســى فى المرآة لا أرى ســوى أشــلاء من روحى .. فأبعد عينى عن المرآة ثم أعاود النظر مرة أخرى .. فكلما نظرت فى المرآة وجدت سيلآ من الذكريات يعود لى مرة أخرى ..

لم يكن زواجى من هذا الرجل هو عقابى الوحيد من والدى وعائلته على ما فعلته والدتى معهم ، بل كانوا يضــعون أمامى العديد من الحواجز حتى أســتســلم لرغبتهم فى الزواج .. وأن لا أكمل مسـيرتى التعليمية .. بينما انا فكانت تلك هى المرة الأولى التى أرفض فيها عاداتهم القديمة التى كانوا يقتنعون فيها بزواج الفتيات مبكرآ ولا يجب أن يكملن تعليمهن .. لم أرضـــخ لتلك العادات ولم أستسلم لهم .. قررت أن أحطم تلك العادات حتى لو أضطررت أن أواجه ملايين العقوبات ..

فأنا فى نظر أهل القرية الفتاة الوحيدة التى أكملت تعليمها دون باقى فتيات العائلة ، لما لا أقف أمام عقلياتهم المظلمة التى إمتلأت بعادات بالية ، مضـــى الزمن وقوانينهم مازال كما هو ، وكررهم للفتيات كما هو ..

أتذكر يوم عرس إحدى بنات عمى .. كان جميع نســاء العائلة مجتمعات يتحدثن عن الفرق بين الزواج قديمآ وحديثآ ، حينها رمقتنى إحداهن بنظرة لوم متسائلة ..

الم يكن من المفترض أن تبحثين عن عريس عوضــآ عن إكمال تعليمك الجامعى ! .. لقد تزوج جميع بنات العائلة قبل زواجك وجميعهن أصغر منكِ سنآ .

كان حديثها بالنســبة لى مجرد حديثآ عابرآ ، ولكنه لم يكن كذلك بالنســبة لزوجة والدى التى لم تتردد فى إستغلال حديثها لمصلحتها فى إبعادى عن والدى والسيطرة عليه ..

اليوم تأكدت بأنه ليس شرطآ أن تظهر على وجهى تجاعيد كبار السن لأشعر بأننى كبرت .. ولكن هناك ألامآ كثيرآ تختبئ خلف هذا الوجه ..

اليوم أنظر نحو المرآة لأتفقد وجهى جيدآ .. الم تظهر عليه تلك العلامات ؟ .. إنها حتمآ تختبئ بداخل هذا الجسد الذى يبدو سليمآ من الخارج ..

هرعت لنزع ملابســى عن جســدى وانا أتفحص جســدى جيدآ متســائلة .. هل إختفت علامات ضــرب والدى وزوجى أم أنها مازالت موجودة ؟ .. يبدو أن هناك بعض الندبات مازالت موجودة بأجزاء متفرقة من جسدى .

نظرت لذراعى فى المرآة : كم عاماً مر على تلك الندبة الموجودة بذراعى ؟ .. يبدو أنها ترفض الرحيل من جسدى .. هناك ندبة أخرى بساقى .. لا أعلم من تسبب بوجودها .. هل كان والدى أم زوجى ؟ .. لا أعلم هل هناك الكثير منهم فى ظهرى ؟ .. مازلت لا أعلم أيهما تسبب فى وجودهم ..

لا أشعر بألم عند لمسهم .. ولكن هناك ألم أخر يختبأ لسنوات فى جسدى أشعر به عند لمس تلك الندبات .. ولكننى تعودت على الشعور به .. وكلما تجددت الآمى أشعر بأن صندوقاً بداخلى قد فُتح ليخرج منه وجعاً سابقاً .. أعلم أننى أكن قوية بما يكفى لأفرض قوانينى الخاصة على تلك العائلة حين أرادوا أن يزوجونى من هذا الرجل .. وأشعر أحياناً بأن ما عانيته ومازلت أعانيه هو بسبب صمتى على ما يقترفوه من أخطاء بحقى .. كان علياً أن أثور .. أن أصرخ بكل قوتى وأرفض عاداتهم .. أن أرحل بعيداً عن تلك القرية .. ولكننى وجدت نفسى اعتنق عاداتهم مرغمة .. أصمت كما تصمت جميع الفتيات من العائلة .. أرضخ لتلك القوانين القاسية التى لا تعترف بأن القلب خلق لينبض لمن أحتضن آلامه ..

لا أعلم كيف مرت تلك الخمس سنوات فى زواجى .. ولكن الان أعرف جيداً أن تلك السنوات كسرت بداخلى الحياة .. سرقت منى أحلامى ، أصبحت حياتى تتوشح باللون الأسود .. فأصبح الصمت هو طريقتى فى التعبير عن ما أقبلبه أو يُفرض على حياتى .. أشعر بأن قدرى ربما أكون قد صنعته بيدى حين إستسلمت لتلك العادات .. حين صمتت عند حرمانى من الشعور بأننى أنثى تمتلك قلباً يرغب فى أن ينطلق للحياة .. أن أصيح أمام الجميع وأخبرهم بأننى لست مجرد جسد يباع لمن يرغب فى شراؤه ، وأننى لست جارية عليها تلبية إحتياجات زوجها ..

إبتعدت عن المرآة قليلآ وانا أنظر لملامحى من زاوية بعيدة .. أشعر أننى أفضل الآن .. هكذا يجب أن أتخلص من السجن الذى سُجنت فيه منذ طفولتى .. يجب أن أعود لحضن أمى .. أنا حقآ أحتاج إليها .. أحتاج لها حتى تعانقنى عناقآ طويلآ عوضآ عن كل السنوات الماضية .. أن أستعيد طفولتى التى سلبها منى الجميع فى تلك القرية .. لقد حان وقت التمرد .. وقت العودة لسنوات أنوثتى ...

هكذا كانت كلماتى حين أردت أن أرحل عن تلك القرية وأبدأ رحلة البحث عن والدتى التى أعلم جيدآ بأنها ستعيد لى طفولتى .. قررت البحث عنها فى المدينة ولم أكن أعلم بأن القدر سيكتب لى فيها قصة عشق .. قررت الهروب من القرية ليلآ دون أن يعلم أحد بذلك .. لم أفكر فى رد فعل زوجى أو جدتى أو والدى .. فليس هناك وقت للخوف منهم ، فقد قررت أن أصنع عالم جديد أتحرر فيه من كل القيود التى تحاوط بى ..

غادرت القرية وقد إعتزمت نسيان كل ما مررت به فيها .. لم أفكر بما ستؤول اليه حياتى بعدها ، ولا لما سوف أواجهه فى مدينة لا أعرف أحدآ فيها سوى والدتى التى لا أعرف أين تسكن .. كل ما أعرفه هو أننى تحررت أخيرآ من تلك القيود ..

***

كانت رحلة بحثى عن والدتى طويلة وشاقة ، فقد واصلت البحث عنها لثلاث أيام ولم أجدها .. فكان كل ما جمعته من معلومات عن مكان إقامتها .. كان ورقة صغيرة وجدتها بداخل صندوق

قديم كان يحتوى على عنوان جدى ، وبقايا ملابسها التى تركتها قبل رحيلها عن القرية .. لا أعلم إن كان ما كتب على تلك الورقة هو عنوانها أم لا ! ..

حين عثرت على عنوان المنزل المذكور فى الورقة .. وجدته قد تبدل وبنى مكانه دار للأيتام .. وقفت لدقائق وانا احاول التقاط انفاسى ، فقد فقدت الأمل الوحيد الذى أمتلكه لأصلالى والدتى .. دخلت للدار أسأل عن منزل جدى ربما يعرف من بالدار مكانهما ..

قابلت مديرة الدار (السيدة حكمت) وهى إمرأة فى منتصف الخمسين من عمرها ، تظهر على وجهها الطيبة الشديدة .. أخبرتنى بأنها لا تعرف شيئآ عن والدتى فقد بُنيت تلك الدار منذ سنوات وهى لم تتواجد أثناء انشائها .. جلست أمام مكتبها وانا أشعر بإحباط شديد .. لا أعلم أين والدتى ؟ ، ولا كيف سأعيش بمفردى فى تلك المدينة الغريبة ؟ ..

أفكر الى أين سأذهب .. هل أعود للفندق مرة أخرى وانا لم أعد أمتلك أموال لسداد إقامتى به ؟ ، أم أعود لوالدى وعائلته مرة أخرى ؟ .. كانت تلك الفكرة تصيبنى بالرعب الشديد " لن أعود مرة أخرى مهما حدث " .. بدأت الدموع تنهمر متتالية من عينى دون إرادتى ، فهذا هو فشلى الأول فى المدينة ، الفشل الذى سوف يجبرنى أن اعود للسجن مرة أخرى ..

خرجت السيدة حكمت من مكتبها ، شاهدتنى مازلت أجلس بالقرب منها ولم أغادر الدار .. سألتنى بهدوء :

– لماذ تجلسين هكذا يا أبنتى ؟ .. ولماذا تبكين ؟ هل كان من تسألين عنهم أقارب لكِ ؟

لا أعلم لماذا لم أخجل من إخبارها ببعض التفاصـــيل الصـــغيرة عن حياتى وعن ســـبب إنتقالى للمدينة .. ربما بســبب إحتياجى الشــديد لشــخص يعاوننى على البحث ، أو يكون ســند لى فى المدينة .. لا أعلم ولكنى قررت أن أتخذها أماناً لى ..

فاجأتنى هى بما لم أتوقعه .. فقد عرضت علىّ العمل معها بالدار والأقامة به .. لم أفكر طويلاً فى عرضـها فأنا لا أمتلك خيارات أخرى بديلة .. كنت أشـعر بالوحدة الشـديدة فى أول أيام عملى بالدار كان عملى بالدار .. وكلما شاهدت الأطفال بالدار ، كنت أتذكر تفاصيل طفولتى .. ليس هناك فرق كبير بيننا .. هؤلاء الأطفال فقدوا عائلاتهم ، وأنا عشـت لسـنوات مع عائلة لم أشـعر معها بطفولتى .. جميعنا حُرمنا من حنان ودفـء العائلة ..

حاولت كثيراً كتمان مشاعرى أثناء التعامل مع الأطفال .. أتجنب الإقتراب منهم ، وكأننى أخاف عليهم منى .. أخاف أن أقسو عليهم دون وعى .. فلطالما شعرت بأننى لا أصلح لأن أتبادل مع أحد مشــاعر الحب " أو ربما مقولة فاقد الشــئ لا يســتطيع تقديمه للأخرين صــحيحة" .. ولكن القدر أراد أن يمحى ما آمنت به لسنوات ويبدله لشعور أكثر أماناً ..

لم يكن هناك طفل من أطفال الدار مميز بالنسبة لى سوى طفلة فى الثامنة من عمرها .. تجلس دائماً بمفردها بعيداً عن الجميع .. تذكرنى عزلتها وإنطوائيتها بنفسـى كثيراً .. جلوسـها بعيداً عن باقى الأطفال كان تثير فضولى كثيراً .. فكلما حاول أحد الأطفال الإقتراب منها أو دعوتها للعب معه فترفض بحسم ، ثم تنظر نحوى وعيناها ممتلئة بالتساؤلات ..كأنها تتحدث معى وتطلب منى أن أجلس بجوارها لتخبرنى شيئاً ما تخفيه عن الجميع .. ولكننى كنت أتجنب النظر إليها ، حتى لا أرى ضعفى فيها ..

اشعر بأننا متواصلين دوماً بالرسائل الصامتة ، وأن هناك شيئاً ما يجذبنى نحو تلك الطفلة .. ينتابنى الفضول ولا أستطيع إبعاد نظرى عنها ..

.. تلك الطفلة ربما شـــعرت بأن هناك ما يجمع بيننا .. ولكننى علمت بأن هناك الكثير من التشـابه بيننا .. وأن بداخلنا قصـص متشـابهة ، كأنها تعيد لى طفولتى وذكرياتى التى حاولت إخفاؤها بداخلى .. وكأن قدرى وضـعها فى طريقى لأعيش مرة أخرى ما مضـى .. أصـبحت معها أعيش اليوم بتفاصيلها هى .. وللمرة الأولى منذ سنوات إبتسمت عينى التى ملأها الحزن .. أما عنى فحاولت أن أعوضها ما حُرمت أنا منه ..

أتذكر يوماً سألتنى عن والدى .. هل هو مازال على قيد الحياة ؟ .. لم أستطيع حينها أن أعترف بأنه هكذا .. ربما كانت مشـاعر الغضـب منه مازالت مترسـبة بداخلى ، ومازلت لم أسـتطيع التخلص منها .. أردت كثيراً أن أحبه للدرجة التى أكون فيها فخورة بكونى إبنته .. ولكن ما يحدث هو عكس ما نتمنى ..

إبتسمت لها وإحتضنتها .. ما رأيك يا ريم ان تكونى أنتى عائلتى الوحيدة ؟

إبتعدت عنى قليلاً فجأة وهى تنظر لى بغرابة ، قائلة : ولكنك ســـوف ترحلين يوماً مثلما رحل والداى .. هل سترحلين مثلهما ؟

انتفض قلبى لكلماتها وكأننى أعيش شعور الفقد مرة أخرى .. وحاولت أن لا أتفوه بكلمات ووعود ربما لن أفى بها يوماً .. ولكننى شعرت بأنها حقاً أصبحت جزءاً من روحى ، أشعر وكأنها أنا فى جسـد طفلة .. وبأن رحيلى عنها يوماً سـيؤلمنى أكثر منها .. مسـكت بيداها الصـغيرتين وقبلتهما برفق ..

- أعدك بأننى لن أرحل يومآ ، سأكون معكِ لسنوات طويلة حتى تكبرين وتصبحين عروسآ جميلة .. ما رأيك ؟

عانقتنى بلهفة .. فقد شعرت بالأمان وتخلصت من خوفآ كان يقيد فرحتها لسنوات طويلة ، او ربما تخلصت أنا من شعورى الدائم بأن ليس هناك شخصآ يرغب بوجودى فى حياته .. بل ان إحتضانها لى المغمور بالأمنيات والأمل بمثابة الأمان الذى بحثت عنه بعائلتى حتى أصبحت هى عائلتى ..

مرت شهور بالدار كنت أشعر بأن ايامها طوال وأنا أبحث بكل مكان عن والدتى ولم أستطيع العثورعليها ، حتى بدأ ينتابنى اليأس والأستسلام للعمل بالدار .. أصبحت أعمل لساعات طويلة نهارآ ويجافينى النوم ليلآ من مرارة التفكير .. كانت ريم الإبتسامة التى تمحو تلك المرارة .. ورواياتها التى تسردها لى كل ليلة هى الأمل فى المستقبل .. لا أعلم من أين تجلب تلك القصص ولكنها مسلية كثيرآ ..

سردت لى ذات مرة بأن والدها كان يلعب معها بإحدى العابها وطلب منها أن تتعلم العد على إحدى الألعاب ولم تستطيع هى العد حينها ، ولكنه لم يغضب منها لأنه يحبها كثيرآ ..

كانت قصتها وهمية وهى تعلم ذلك حيدآ ، ولكنها تؤمن بحروفها جميعآ .. أرادت أن تتخطى حرمانها من أبويها بقصصآ تجمعها بداخل قلبها وعقلها ..

كنت أنصت لها واومئ برأسى وكأننى أصدق ما تقوله .. ابادلها الحديث ببعض التساؤلات التى كانت تجيب عليها بسلاسة وسرعة بديهة .. جعلتى أصدق بأنها عاشت لسنوات مع عائلتها .. وانا حينها لم أكن أنوى شيئآ سوى الا أشتت تركيزها وأبعدها عن عالمها الخاص الذى نسجته

لنفسـها لتشـعر بالطمأنينة .. ولكنها لفتت إنتباهى لما تشـاركناه سـويآ .. وهو الأمان الذى نبحث عنه .. أردت أن أشـبع رغبتى فى الحصـول على عائلة أشـعر معها بالحب حتى لو كان مجرد خيال أنسجه أنا بنفسى داخل عقلى وقلبى ..

جلست أفكر .. كيف لطفلة فى هذا السن الصـغير تجد علاجآ خاصـآ بها يشـعرها بالأمان ، وأن تكون طفلة سوية لا تشعر بالنقص ! .. ربما يكون هناك ما تخفيه تلك الطفلة بداخلها .. ماذا لو كانت قصـصـها حقيقية ؟.. ذهبت مباشـرة الى غرفة السـيدة حكمت لأسـألها عن حياة مريم قبل وجودها بالدار ..

أخبرتنى بأن مريم ليس لديها عائلة ، وقد توفى والديها بحادث سـيارة ، ولم يتبقى أحد من أفراد عائلتها سوى عمها وزوجته ، وقد هاجرا مباشرة بعد وفاة أخيه وتسليمها للدار ، وقد أخبرنا بأنه لا يستطيع تربيتها معه .. وتوعد بالتبرع شهريآ للدار والتكفل بمصاريفها ..

– وهل وفى بوعوده ؟

– إعتقد أنه نسى انه أودع إبنة أخيه لدينا يومآ .

شـعرت بالحزن الشـديد نحوها ، فقدرها أن تعيش بدار للأيتام ولديها عائلة ، وأنا قدرى أن يكون لى عائلة يكرهون وجودى .. لم أفكر طويلآ فيما إذا كان هناك شـيئآ أقوم به من أجل تعويضـها عن خيبة الأمل تلك .. ولكننى وعدتها بأننى سأكون عائلتها ..

كرست وقتى كله لها ، و علمتها أن تحاول إختيار عائلتها من اطفال الدار .. فقد إختارت جميع الأطفال إخوة لها .. وإستطاعت الخروج من عزلتها ووحدتها من تلقاء نفسـها .. او ربما عندما تأكدت بأننى دائمآ بجوارها ..

وبدأت أنا أيضآ بالخروج من عزلتى وسرد ما يدور بعقلى من روايات يصنعها خيالى على الورق .. كتبت عن رحلتى من القرية حتى وصـولى للدار .. كتبت أيضـآ عن كل ما مررت به من ألم .. وأننى سأظل أبحث عن والدتى دومآ ..

هكذا علمتنى إبنتى الصـغيرة .. أن أشـفى الآمى بالكتابة .. كنا طبيبان بعضـنا ، وبرغم صـغر سـنها ، الا أنها كانت رفيقة دربى لعامان .. إسـتطاعت فيهما أن تعيد طفلى الداخلى للحياة مرة أخرى وتعليمه أن الحياة مهما قست علينا ، الأ أنها ستبتسم لنا يومآ ..

ولكن قدرنا كتب لنا طريقآ آخر لم اتوقعه ، حين قرر عم ريم وزوجته بعد أن فقدا طفلهما أن يأخذاها من الدار والهجرة مرة أخرى .. كانت مشـــاعرى يومها مختلطة ، لا أعلم هل يجب ان أشـعر بالسـعادة لأن ريم سـتشـعر بحضـن العائلة الذى فقدته منذ سـنوات .. أم أسـتسـلم لشـعور الحزن الذى إنتابنى فور علمى بالخبر ؟ .. كيف سـيأخذون طفلتى ورفيقة دربى بتلك البسـاطة ؟ ..

حاولت أن أتقبل ذلك الحدث ، والسـيطرة على مشـاعرى وعدم الإسـتسـلام لأنانيتى تجاهها.. وعندما حان ميعاد مغادرتهما للدار مصـطحبين معهما ريم .. حينها نظرت ريم نحوى بنظرات لم يفهمها سوى انا .. وكأنها لا ترغب بالرحيل ، وتطلب منى أن أمنعهما من إصطحابها معهما .. ولكننى حاولت تجاهل نظراتها لى ، وصـنع إبتسـامة مزيفة على وجهى احاول بها إخفاء الألم العميق بقلبى .. وحاولت توديعها سـريعآ حتى لا تنهمر دموعى مرغمة أمامها .. وأنا اترقب خطواتها سـيرآ نحو باب الدار ، لم أسـتطيع التماسـك فإسـتدرت متجهة نحو غرفتى خوفآ من أن ترى دموعى ، الا انها لم تسـتطيع هى الأخرى المغادرة بدون أن تترك لى وداعآ يظل عالقآ

بذاكرتى للأبد .. فهرولت نحوى وتمسكت بى وهى تبكى وتتفوه بكلمات غير مفهومة .. إنحنيت لها أمسح دموعها وأنا أبكى بقوة تتخطى حبى لها أضعافآ .. وطلبت منها أن تعدنى بأن تكون قوية كما تعودنا سويآ .. ووعدتها بأن أراسلها طوال حياتى حتى تصير عروسآ كما وعدتها سابقآ .. طمأنتها كلماتى وإستسلمت للرحيل .. بل رحلت وقلبى رحل معها .. وأنهت فصلآ جديدآ من الألم بحياتى ..

لا أعلم لم تجبرنا الحياة على فراق من نحب ؟ .. لما تجبرنا أن نعيش بألم الذكريات ؟ .. ليس إنصافآ منها أن تفعل بنا هكذا .. هل علينا أن نتقبل مرارة عالم يقسو علينا كل يوم ؟ .. هل يجب أن نتناسى ألم يسكن بقلوبنا ؟ .. كثير من التساؤلات قد دارت بعقلى لا أعلم ما إجابتها ، لكننى أحتفظ بها بداخلى حتى أجد لها تفسير ..

لم يكن فراق ريم مؤلمآ ، بل كان بداية رحلة جديدة لصنع الأمل كما علمتنى هى ذلك .. فقد فتحت أمامى بابآ جديدآ للعمل بمكان آخر .. فالدار لم تبقى مكانآ أشعر فيه بالسعادة ، بل كل الأماكن تذكرنى بها .. ضحكتها ، صوتها حين كانت تنادينى .. فكانت ذكرياتى معها تلاحقنى بكل مكان ، وأرغمتنى على التفكير بالرحيل من الدار بعد رحيلها ببضعة أيام .. فقد أجمعت شجاعتى وأخبرت السيدة حكمت بقرارى .. ولكنها لم توافق عليه معللة بأن جميع أبناء الدار سواسية ويحتاجون هم أيضآ أُمآ لهم .. وأن ما كنت أقدمه لريم من رعاية وإهتمام ، يحتاجه جميع أبناء الدار مثلها تمامآ .. فيجب أن أنتظر لبضعة شهور أخرى حتى تجد بديلآ عنى يساعدها فى العمل .. حينها شعرت بأنها محقة ، فهولاء الأطفال أيضآ تقع على عاتقى مسؤلية تجاههم ..فقررت المكوث مرة أخرى ونسيان فكرة الرحيل ، وفى كل مرة كنت أشعر فيها بالحنين

لريم .. كنت أخرج سريعآ ورقة وقلم وأسرد فيها قصة من خيالى كما علمتنى .. يا لها من طفلة قوية !

، إنها كانت تجبرنى أن أبتسم على أصغر كلماتها الغير منطقية .. كانت تجبرنى على الدخول فى تفاصيل رواياتها وانا سعيدة ويغمرنى الشغف .. كنت أنتظر نهاية قصصها وأنا أصدق كل حروفها ..

اليوم أنا أشبهها تمامآ .. أسرد على الورق روايات لم أعيشها قط ، وأكتب عن أبطالآ لم أتحدث يومآ معهم سوى بخيالى .. ليتنى أستطيع الآن أن أخبرها كم إشتقت إليها ..

قبل رحيلى عن الدار أخبرت السيدة حكمت بأن حلم إكمال المرحلة الجامعية يراودنى منذ أن أجبرنى والدى على نسيان فكرة الإلتحاق بالجامعة وإرغامى على الزواج من رجلآ لا أعرفه .. قررت السيدة حكمت بأن تساعدنى .. إبتسمت إبتسامة هادئة كعادتها قائلة : سيفعل الله ما يشاء ، وسأكون دائمآ بجوارك حتى تحققين جميع ما حلمتى به ..

كانت كلماتها حينها بمثابة الأمل الذى أنار لى طريقى .. والقوة التى تسلحت بها حين قررت الرحيل من الدار .. وساعدتنى بدورها فى الخطوات الأولى للتقديم للجامعة ..

إنتهت رحلتى بالدار سريعآ .. وحان موعد رحيلى عنه .. بل يجب أن أغلق صفحة جديدة من صفحات حياتى .. لم تكن خطواتى الأولى بعد رحيلى عن الدار صعبة بقدر ما كانت مخيفة .. فكانت خطوتى الأول هى إكمال مسيرتى التعليمية .. كنت أقضى وقتى كله فى التفكير فى تلك الخطوة .. فبرغم شغفى تجاهها ، الا أننى كنت أتراجع أحيانآ عنها .. فكان يراودنى الخوف كثيرآ .. فكيف لإمرأة مثلى تجاوزت عمر التعليم أن تلتحق بالجامعة ! .. وأحتاج أيضآ للأموال حتى

أســـتطيع أن أصـــل لما أحلم به .. فكلما فكرت فى التراجع عن ذلك ، كان هناك شـــيئآ ما بداخلى يزيدنى إصـرارآ على المضـى فى نفس الطريق .. " ربما لأنه حلم لطالما روادنى " .. إنه خيط أمل يجب أن أتمســك به .. فذهبت للســيدة حكمت أطلب منها قبول عودتى للدار مرة أخرى والعمل فيها ..

– إندهشت من طلبى .. لماذا غيرتِ رأيك يا مريم ؟! .. هل حدث شئ سئ أجبرك على العودة ؟

– رددت بإرتباك .. لن أخفى ما بداخلى لكِ سـيدتى . فأنا أحتاج للمال حتى أسـتطيع مواصـلة طريقى .. فأنتِ تعلمين ما تركته خلفى فى القرية وحضـرت الى المدينة ، ولا أسـتطيع العودة له مرة أخرى ، فأنا أحتاج للعمل حتى أستطيع أن أكمل تعليمى الجامعى .

– ولكنك لســـتِ مجبرة على العمل مرة أخرى فى الدار .. هناك وظائف أخرى كثيرة ، ربما تشـــعرين فيها بالشـــغف أكثر من الدار ، فأنا أعلم بأنكِ لم يروق لكِ العمل هنا ، ولكنك كنتِ مرغمة على ذلك .

– والآن أنا مرغمة أيضآ ، فأنا لا أعرف غيرك فى تلك المدينة يا سيدتى .

إبتسمت .. ما رأيك فى العمل بالصحافة ؟ .. هل يروق لكِ ذلك ؟

فاجأنى حديثها .. وإتســعت عيناى دهشــة .. فالصــحافة ليســت بالعمل الهين الذى يعمل به أشـخاصـآ عاديون .. ولكنها عمل راقى ويحتاج الى ثقافة مهنية كبيرة .. فمن أنا لأعمل فى هذا العمل ؟ .. رددت وأنا مطأطأة رأسى خجلآ ..

– لكنى لم أكمل تعليمى وأنتِ تعلمين ذلك !

لا تقلقى .. لى صديق صحفى سأخبره بما نريد وننتظر رده .. لم تنتظر السيدة حكمت لليوم التالى لتخبر صديقها عنى .. وقد حضر السيد (فريد) سريعآ .. إنه رجل ستينى، وقور .." ويبدو أنه يكن لها حبآ عظيمآ بداخله ، ولكنها لا تعلم بذلك " .. أخبرته السيدة حكمت بما أرغب فيه .. إعتقدت للوهلة الأولى بأنه سيرفض عملى معه بسبب عدم حصولى على شهادة جامعية .. ولكنه كان كريم معى كثيرآ ..

إبتسم قائلآ .. سيكون عملك معنا بسيطآ للغاية وسأحدد لكِ راتب شهرى تستلميه مقدمآ .. قابلينى غدآ فى مكتبى لنحدد القسم الذى ستعملين فيه .

– نظرت له مندهشة .. هل سأستلم عملى غدآ ؟

–. بالطبع ، فحديث السيدة حكمت عن كتاباتك يكفى للعمل معنا .

ذهبت فى اليوم التالى لمقابلة السيد فريد .. كنت أسير بين غرف الجريدة بحذر وقلبى يخفق بشدة .. لم أكن أعلم بأن الجريدة عريقة هكذا .. العمل فيها قائم على قدم وساق .. أرى الصحفين يجلسون فى كل مكان يعملون ، والعمال يسيرون بين الغرف .. حين وصلت أمام غرفة السيد فريد شعرت بالتوتر بدأ يؤثر على جسدى ، فأصبحت أشعر بحرارة جسدى تسرى بداخلى .. دخلت المكتب وجدته فى إنتظارى " يا له من رجل طيب " .. جلست على المقعد المقابل لمكتبه وأنا أرتجف .. فتلك هى المرة الأولى التى أخرج فيها للعمل .. كان الخوف بداخلى يقابله شعورآ بالحماس .. أشعر بأن عالمآ جديدآ قد فتح أبوابه أمامى .. والنجاح سيكون حليفآ لى ما دمت سأخلص فى عملى .. هكذا إعتزمت أن أكون .. سألنى السيد فريد عن نوع

العمل الذى أشــعر بشــغف تجاهه .. تلجلجت وأنا أفكر .. فلم أفكر يومآ كيف ســتكون طبيعة عملى إذا قررت العمل .

– لا أعلم يا سيدى .. فلتختار لى أنت ما يناسبنى .

– إذآ العمل فى الرد على بريد قراء الجريدة يناسبك .

– وما هو نوع رسائلهم ؟

إنها رسـائل خاصـة بين قراء الجريدة وبين " رشـاد " الصـحفى الذى كان يرد عليهم ، فلا أحد منا يعلم ما تحويه تلك الرسـائل .. فقد خلق بينه وبين القراء صـداقة متينة .. ولكنه قرر السـفر الى الخارج لظروف صحية .. هل تقبلين أن تعملين مكانه ؟

– بالطبع ، ولكن هل تعتقد بأننى سأنجح مثاما نجح رشاد ؟

– أنا أثق بك كثيرآ يا مريم .. فمن ذاق مرارة الألم هو الأجدر بأن يفهم مرارة غيره .. وهو أيضـآ الأجدر بمسـاعدة غيره على تخطى ألمه .. فكونى قوية .. وأسـتعدى للعمل فورآ ، فمكتب رشـاد متراكم بالرسائل .

كانت تلك الكلمات دافعآ قويآ لنجاحى .. ولكن خوفى من عدم قدرتى على النجاح كان قويآ أيضآ .. فطلبت من السـيد فريد أن يمنحنى فرصــة للعمل تحت إسـم مسـتعار .. فقد إخترت هاتان الحرفان (م . ح) للتوقيع على رسائل القراء ..

لم يمضـــى وقتآ طويلآ لى فى العمل وقد إكتسـبت محبة القراء .. وبات الجميع يرغب فى معرفة من تكون صـــاحبة هاتان الحرفان .. أما أنا فلم يكن يشـــغل عقلى ســـوى النجاح فى العمل .. والإستعداد للجامعة ..

أتذكر إحدى الرسـائل التى وصـلتنى من إحدى القراء تسـألنى عن حياتى الشـخصـية .. كانت رسالتها قصيرة ومحددة ..

" من تكون يا ذو الأحرف الغامضة " ؟

ضحكت بشدة .. فيبدو أنها كان تعتقد بأننى رجل .. كان ردى حينها مختصرآ أيضآ ..

" أنا شخص لا تغريه الأحاديث العشوائية "

لقد كان ردى غامضـآ بالنسـبة لها ، فبعثت لى برسـالة أخرى زادت فيها الكلمات ، وكانت أكثر فضولآ ..

" لو لم تكن خائفآ من شئ ما ، لكنت أفصحت للقراء عن إسمك "

كانت رسالتها وكأنها رسالة خاصة لدواخلى .. فقد بلغت التساؤلات بداخلى حد الحلقوم ..

لقد هربت من ماضـــىّ .. تركت زوجى وعائلتى .. تنصـــلت من عاداتى .. تمردت على قوانين القريـة .. نعم ، أنـا هاربـة من دواخلى .. هاربـة من تلك الحيـاة الظـالمـة .. حـاولـت أن أطوى صـفحات الماضـى ولكنها أبت أن تطوىّ .. إنها تلاحقنى دومآ .. تؤلمنى بشـدة .. لا تترك لى مجال لأتنفس هواء الحرية .. ولكن هل سأظل هاربة ؟ .. هل سيمنحنى الله الطمأنينة يومآ ؟ ..

هل سأنجو من ملاحقة الماضى لى ؟ .. لا أعلم ما سيأتى ، ولكنى أعلم بأننى أغامر بلا شئ .. فلن أخسر أكثر مما خسرت ..

أصبحت صديقة وفية للقراء .. يبعثون برسائل يومية بلا عدد .. فيمر الوقت سريعآ وانا غارقة بين رسائلهم .

اللوحة الخامسة

خطوت خطوتى الأولى نحو تحقيق أحلامى .. كانت ســـعادتى غامرة حين دخلت الجامعة للمرة الأولى .. أنظر لكل مكان فيها وكأننى شــاهدته فى أحلامى ســابقآ .. وبرغم ســعادتى الا أننى كنت أتجنب النظر الى زملائى ، فعند النظر اليهم أشعر بأننى أصبحت أكبر سنآ من أن أسعى لإكمال تعليمى ..ولكنى أصـــبحت أؤمن بأن القدر يمكن أن يباغتنا بالســـعادة .. فحققت حلمى بدخولى كلية الآداب وتخصصت فى فرع الفلسفة .. لا أعلم لما أحب هذا الفرع ؟ ، ربما لأننى أتمنى أن أتحدث عن نفسى ذات يوم .. وأسرد ما يدور بداخلى بدون خوف .. على الرغم أننى شخصية غريبة فى نظر زملائى ، فأنا فى نظرهم فتاة غامضة لا يعلمون عنى شئ ؟؟ من أين أنا ؟ ولا كيف كانت حياتى قبل الجامعة ؟ .. كنت أنتظر إنتهاء محاضراتى لأغادر سريعآ وأعود للمنزل الذى يمر فيه الوقت ببطأ شـديد .. كان يجب أن أجد حلآ لشـعورى بالملل الذى ينتابنى بعد عودتى من الجامعة .. فقررت أن أكمل ما بدأته فى إحدى رواياتى .. حتى بات أبطالها مألوفين كثيرآ لى .. فأجد نفسى فى بعض الأحيان أشتاق لأحد أبطالها وأنا بالجامعة ، ويذهب عقلى إليه واتسائل عنه ، ماذا سوف يفعل لاحقآ مع حبيبته ؟ .. هل سيتركها ويرحل أم سيظل على عهده معها ؟ ..

لاحظت أنى لم أكتب نهاية للكثير من الروايات .. ولا أعلم لماذا تهرب منى النهايات دائمآ ! .. ولكن كل ما أصـــبحت أعرفه جيدآ هو أن كتاباتى باتت جزءآ لا يتجزأ من حياتى .. فى المنزل والجامعة والكافيه الذى تعودت أن أذهب إليه حين أشعر بالملل من رتابة منزلى ..

لم أكن أنوى تكوين صـداقات بالجامعة ، فقد كنت دائمة الهروب ممن يحاولون التقرب منى ، لم أكن أملك سبباً فى هروبى من الجميع سوى من خوفى من الإجابة على تساؤلاتهم عن حياتى .. فأنا إمرأة تكره البوح بما تشــعر به ، وما مرت به .. وقد ســيطر خوفى علىّ منذ اللحظة الأولى لدخولى الجامعة .. كنت كطفلة تتعلم الحديث لاول مرة مع الغرباء .. ردودى مختصـرة وإجاباتى سـطحية على من يطرح سـؤالاً لى .. لكن تلك الحواجز ذابت تماماً حين تعرفت على صـديقتى وفاء .. إنها لم تترك لى مجال للإبتعاد اوالهروب من أسئلتها ..

كانت تضـحك كثيراً .. تضـحك بلا أسـباب .. لدرجة تجعل من ينظر لعينيها يضـحك تلقائياً بلا أسباب أيضاً ..

كأنها كانت تعلم من أكون منذ دخولى للجامعة .. عند لقائى بها للمرة الاولى حدثتنى وكأنها تعرفنى منذ ولدت .. لا أخفى أنها أرعبتنى كثيراً حينها .. قالت وهى تنظر بعينى وتبتسم ..

أعلم أنكِ هنا لتعوضين سنوات من الشقاء فى حياتك .. وأعلم أيضاً بأن بداخلك صندوقاً أسود يحتوى على الكثير من الذكريات المؤلمة .. أكملت مازحة :

هل سـتفتحيه لى بإرادتك أم سـأنتظر كثيراً لأفتحه أنا بنفســى ؟ ، وإعلمى أننى سـأدهشـك حين أخبرك بما يحتويه هذا الصندوق .

إستمعت لحديثها وأنا أرتجف ثم غادرتها .. لم تلتفت لى مرة أخرى لترى تعبيرات وجهى ..

وفى لقائنا الثانى ذهبت إليها بإرادتى للتحدث معها ، ولم أســـتطيع الســـيطرة هذه المرة على الحواجز التى وضعتها بينى وبين الآخرين .. سألتها وأنا يغمرنى الفضول :

– كيف علمتى بما أخفيه بداخلى ؟

ضحكت بشدة .. الم يكن كلامى صحيحآ ؟

حاولت المراوغة وإخفاء التوتر الذى بدا واضحآ فى رجفة صوتى وانا أجيبها .. إنكِ غريبة حقآ ، هل تقرأين الأفكار أم تشعرين بما يخفيه الأشخاص ؟

أجابت بهدوء شـــديد .. بل إن عيناكِ باحت لى بكل ما يخفيه قلبك من حزن ، فأنا اســـتطيع أن أشعر بحزن الأخرين حتى لو حاولوا إخفاء أحزانهم ..

حاولت أن لا أخذ كلامها بجدية مع إن تعبيرات وجهها جدية للغاية .. سألتها :

– وماذا إذا خانتك عيناكِ ولم تفهمنى جيدآ ؟

– لم أُخطأ يومآ فى فهم مشـــــاعر الآخرين ، ولكن ربما أخطأت فى فهم الكلمات التى تحكيها عيناكِ ، ولكننى لم أخطأ فى الشعور بحزنك الداخلى .. هل أنا مخطئة ؟

لم أســـتطيع إخفاء دهشـــتى بما تقوله ، ولا إخفاء ما أشـــعر به حين أخبرتنى بأنها ترى الحزن متغلغلآ بعيناى .. كانت بداية صـــــداقتنا غير عادية ، فلم أتوقع يومآ أن يكون لى صـــــديقة لم اترعرع معها منذ طفولتى ، ولم أتوقع أن يهدينى القدر صديقة تتفاعل معى ولم تشاركنى تفاصيل طفولتى ومراهقتى وشـــبابى .. ولكنها شـــاركتنى ســـرد كل تلك التفاصـــيل خلال أربعة ســـنوات بالجامعة .. شاركتنى ما تألمت منه ، وما كنت أشعر به فى كل عام من أعوام حياتى .. تغلغلت بداخلى وأخرجت منى الصـــندوق الأســـود الذى أخفيت فيه كل معاناتى وشـــقائى وحتى أحلامى وأمنياتى التى لم أحقق منها شـــيئآ .. بل أنها أيضـــآ صـــنعت معى أحلامآ جديدة ، وكأنها تكمل

معى بقية التفاصـــيل التى صـــنعتها معى ريم .. او إنها قررت أن تكمل معى الطريق الذى شاركتنى إياه صغيرتى ورحلت فى منتصفه .. فأصبحت وفاء بالنسبة لى الصديقة التى أبوح لها بما يؤلمنى دون الخوف من نظرتها لى .. أشـــاركها لحظات ضـــعفى دون الشـــعور بالدونية .. أتجرد من كل ما تسلحت به من قوة لأخرج للعالم معها فأشاركها هى ضعفى وخوفى ..

وشاركتنى هى عائلتها الصغيرة التى تتكون من والدتها وأخت واحدة متزوجة ومهاجرة .. لقد زادت مهمة جديدة فى قائمة مهماتى الأسـبوعية ، وهى زيارة والدة وفاء وقضـاء اليوم بكامله معهما .. كانت والدتها بمثابة والدتى التى بحثت عنها طويلاً ولم أجدها ..

مرت السنوات سريعاً وأنهيت جامعتى كما كنت أحلم دائماً ..

كانت وفاء قد إرتبطت بشاب من عائلتها خلال سنوات الجامعة .. أتذكر يوم زفافها .. حينها بكيت كثيراً إعتقاداً بأننى لن أستطيع رؤيتها او التحدث اليها كما تعودنا .. كانت والدتها تضحك بشدة وهى تشاهد دموعى تنهمر متتالية دون توقف وانا أودع وفاء وهى ترحل بسيارة زوجها ليلة زفافها .. ولكنها حاولت أن تطمأننى قائلة ..

– إبنتى العزيزة مريم ، الزواج ليس نهاية العالم وسوف تمر أيام قليلة وستعود لكِ صديقتك وفاء ، بل وستعود أيضاً الى حضنى .. فلتطمأنى إبنتى .

– أنا أشـعر بالخوف كثيراً ، ماذا لو منعها زوجها من رؤيتنا ؟ .. لقد تألمت سـابقاً كما تعلمين فى تجربة زواجى .. ولم أتعلم منه سوى أن بعض تجارب الزواج هى نهاية الأحلام .. وأن رجلاً فى حياتك لا يعنى سوى وجود الألم بحياتك يستطيع أن يقضـى على أحلام زوجته إن أراد ذلك .

– لا تفكرين بأن كل رجال العالم يشـــبهان والدك ومن كان زوجك يا أبنتى ، ربما يأتى يوماً ويمنحك الله حبيب يعوضك عن كل ما تحملتيه بحياتك .

– لن أفتح قلبى للغرباء ، فكل الرجال متشابهون ، لن يقدمون لى سوى الألم .. ولكننى أدعو الله دائماً بأن تعيش وفاء حياة سعيدة .

كان حديثنا قصـيراً بينى وبين والدة وفاء .. ولكننى لم أسـتطيع نسـيانه بعدها ، كان سـؤالاً يلح على عقلى كثيراً .. هل سيأتى يوماً وأفتح قلبى للحب ؟ .. تساءلت أيضاً ، بماذا يشعر العاشقان ؟ .. هل سـأجرب هذه المشـاعر التى كتبت عنها كثيراً فى رواياتى دون أن يدق لها قلبى يوماً ؟ ..

أصـبحت الأيام تمر ببطأ بعد انتهاء سـنوات الجامعة وزواج وفاء .. قضـيت أوقاتى بين كتابة الروايات و الكافيه الذى تعودت مقاعده علىَ .. حتى أصـــبح مدير الكافيه يعرفنى جيداً وخصص لى طاولة .. وبات يعرفنى جميع العاملين ويلقبانى " بالكاتبة السرية ".. فكنت أجلس دائماً صـامتة .. حتى تعود أحد العاملين (كريم) أن يقف بجوارى دائماً وانا أكتب .. ويقرأ ما أكتبه بشغف ويبتسم فى كل مرة قائلاً : (الكاتبة السرية) .. نظرت له فى إحدى المرات متعجبة :

– سمعتك تتفوه بضع مرات بتلك الجملة .. ماذا تعنى ؟

– اقصـــد بأنكِ روائية ، وتكتبين روايات تشـــبه روايات الف ليلة وليلة .. ولكنك تختفظين بهم جميعاً كأنهم سرك الخاص الذى ترفضين خروجه للعلن .

إبتسـمت : فهمت ما تقصـده .. أنا لسـت كاتبة مشـهورة ، ولم أفكر يومآ فى إسـتغلال ما أكتبه للنشر ..او أنه يصلح للنشر .

رد مازحآ .. هل تعلمين الغيب ؟

– بالطبع لا .

– إذآ أطلقى العنان لعقلك بأن يتخيل كيف ســـتكون حياتك إذا أصـــبحتِ واحده من الروائيات المعروفات .

غادرنى .. وشـردت أنا .. ماذا لو أصـبحت إحداهن ؟ .. ماذا لو لإضـطررت يومآ بأن أتحدث عن نفسى فى إحدى الندوات .. كيف أسير طريقآ كهذا لا أعلم ماذا سيكون مصيرى فيه .. هل سـتقبل إحدى دور النشـر ما أكتبه ! .. لا لا .. لن أفكر فى ذلك ، فأنا لا أصـلح لذلك .. ولن أستطيع أن أخرج من قوقعتى للعلن .

كنت أكتب لنفسـى او للتخلص من الملل الذى يحيط بى وسـأظل أكتب لنفسـى دائمآ .. فالكتابة هى طريقتى الوحيدة للثورة على كل العادات والتقاليد ، الثورة على ضعفى ، الثورة على الظلم فى العالم ، وأملى فى النجاة من ذكرياتى المؤلمة ..

لقد أصـــبحت الروايات التى أكتبها وأحتفظ بها فى مكتبى جزءآ من يومى .. أتطلع إليها يوميآ ، أعيش مع أبطالها فيما يحدث لهم .. أتذكر أننى أحببت أحد أبطال روايتى وبات يتغير مزاجى بسببه .. أتناسى كل شئ من أجل أن أعيش معه فقط ..

تسائلت : كيف تخيلت بطلى هكذا ؟ .. كيف تصورته بهذا الكم من الطيبة ؟ .. فأنا لم أتعامل يومآ سوى مع أشباه الرجال .. فكيف تخيلت نفسى أعشق هذا الرجل الخيالى ! .. ربما أكتب عن نواقصى .. عن ما تحتاجه مشاعرى لتفيض بالسلام .. كان يجب أن أعافر حتى أتحرر من ما يؤلمنى .. كان يجب أن أجد طريقآ لأخرج من عنق زجاجة وضعنى فيها قدرى كما وضعه فيها والدى ووالدتى ..

***

كان طريق البحث عن والدتى صعب .. فكلما وجدت مؤشرآ لوجودها ، كان يختفى مرة أخرى ويصبح سراب .. فأصبحت أشعر بالقلق خوفآ من الرضوخ لليأس والإستسلام .. لا أرغب فى نسيان ما أقدمت للمدينة من أجله .. تمسكت بالأمل مجددآ حين أخبرنى أحد أصدقاء السيدة حكمت "يعمل صحافيآ " بأنه يرغب فى تقديم أى مساعدة لها .. فطلبت منه أن يساعدنى فى البحث عن والدتى .. فقام بإطلاق حملة إعلانية بالجريدة التى يعمل فيها وكتب فيها طلب للبحث عن والدتى وأرفق بها صورتها الوحيدة التى أمتلكها لها .. شعرت بالقلق وانا أسلمه تلك الصورة .. فهى صورة قديمة لها وهى فى العشرين من عمرها .. مؤكد أن ملامح وجهها تغيرت ..

أسـلمه صـورتها والكثير من التسـاؤلات فى رأسـى .. ماذا لو لم تكن تقرأ الجرائد ؟ .. ماذا لو هاجرت لبلد آخر او فارقت الحياة وتركتنى بهذا العالم وحيدة ؟ .. لا أعلم هل ستكون رحلة بحثى طويلة ام لا .. ولكننى سأحاول .. فلم يتبقى لى غير هذا الأمل ..

لم تمر أياماً كثيرة بعد نشـر صـورتها ، فقد كنت أكثر حظاً مما توقعت ، فأخبرنى أحد جيرانها بأنه يعلم بمكانها ولكنه حضر لمقابلتى بطلب منها ليتأكد من هويتى ..

عندما أخبرنى الجار بأنه يعرفها ، لم أسـتطيع السـيطرة على دقات قلبى حينها .. القيت عليه سيل من التساؤلات وأنا أكاد التقط أنفاسى .. سألته مراراً عن إسمها حتى أتأكد بأن القدر إبتسم لى أخيراً .. هل تغير شكلها ؟ .. هل أصبحت سمينه أم نحيفة ؟ .. هل ظهرت بوجهها تجاعيد ؟ .. أعلم إنها جميلة وبالتأكيد ظلت كذلك .. هل تزوجت ؟ .. صـمتت لثوانى ثم أكملت بنبرة يغمرها الألم .. هل تبتسم أم أصبحت تعيسة ؟ .

– ستجدين إجابات لكل تساؤلاتك عندما تقابلين والدتك .

حينها كان شعورى غريباً .. فقد كان حديث الجار مختصراً ومقتضباً ، وكأنه يخفى عنى شيئاً ما .. لكن لهفتى للقاء والدتى كان أقوى من أن أفكر فى شئ غير ذلك ..

حين شرعت فى مقابلة أمى ، لم أكترث لأى شئ ، ولم أخطط لأى سئ سوى أن تعانقنى فقط .. لم أكن أعلم بأن هناك ألم جديد ينتظرنى .. وجدتها تعيش بمنزل صـغير .. تجلس فى غرفتها ، تنظر حولها بين الفينة والأخرى تتأمل فى اللاشـئ .. وقفت أمام باب الغرفة أسـترق النظر إليها من بعيد .. أتمعن فى تفاصـيلها .. مازالت تحتفظ بملامحها الرقيقة ولكن قد ظهرت عليها علامات الشيخوخة .. أنظر لعينيها المكسوة بالتجاعيد ، لا يبدو عليهما السعادة ولا حتى الحزن

، وكأنهما فارغتان من كل شـئ .. هرولت اليها مسـرعة .. جلسـت تحت أقدامها وأنا أبكى .. لا أعلم هل أبكى للقائى بها ، أم أبكى على ما عانيته بدونها .. ولكنى أشـعر بأن قطعة من روحى قد عادت الىّ ..

أمسكت بيديها الممتلئات بخطوط الشيخوخة وأنا أنظر بعينيها .. أمى .. هل تعرفين من أكون ؟ .. أنا إبنتك مريم يا أمى .. أنا إبنتك الوحيدة وحبيبة قلبك عدت إليكِ يا أمى .. أخيراً سـنعيش سـوياً بدون ألم يا أمى .. لقد إشـتقت إليكِ كثيراً وإشـتقت للحظة عناقك .. عانقينى يا أمى فأنا تألمت كثيراً فى تلك الحياة بدونك ..

لم تبدى أى رد فعل تجاهى وكأنها لا ترانى .. تعجبت من رد فعلها فهى من أرسلت جارها للقائى .. فنظرت للجار مندهشة ..

– لماذا لا ترد والدتى علىّ ؟

– إنها لا تعرفك ، ولن تتعرف إليك يوماً ، فقد أصيبت

بالخرف منذ سنوات .

– كيف حدث ذلك ؟ .. ومع من كانت تعيش ؟ ، ومن كان يعتنى بها ؟

أخرجنى الجار من الغرفة ليسرد لى ما حدث معها كل تلك السنوات ..

لم أعرفك بنفسـى منذ لقائنا .. أنا (رفيق) إبن عم والدتك ، لقد أوصـانى عليها جدك رحمه الله .. فوالدتك كانت تعانى من إضـطرابات نفسـية شـديدة منذ عودتها من القرية .. كانت تصـاب بنوبات إكتئاب حادة، وتذكرك كثيراً كلما سنحت لنا الفرصة للحديث سوياً ..

– هل تزوجت من والدتى ؟

– بالطبع لا ..أنا متزوج وأعيش مع أبنائى وزوجتى .. ووالدتك بمثابة أخت لى .. لكنى أزورها أحياناً عندما تكون طبيبتها غير متواجدة معها .. فقد خصصت لها طبيبة للإعتناء بها حتى لا تعيش بمفردها .. قبل أن يتوفى جدك ترك إرثاً كبيراً لها ، أنفق عليها منه تحت وصايتى عليها .. بعد وفاته أصبحت حالة ليلى النفسية سيئة كثيراً لأنها كانت وحيدة بعد تخلى أخوتها عنها حين عادت من القرية وهى مدمرة .. فقد إعتقد أخوتها بأنها خانت والدك بالفعل فتركوها وحيدة وهاجرا مرة أخرى ولم يسأل عنها أحداً منهما بعدها .. فأصبحت حالتها النفسية أسوأ بمرور الوقت حتى أُصيبت بذلك المرض .. حين شاهدت إعلانك للبحث عنها فى الجريدة ، هرولت للقائك أملاً أن تكونى إبنتها بالفعل لتمكثين معها من أجل الإعتناء بها .. هل ستعودين للقرية مرة أخرى وتتركين والدتك ؟

شردت باكية .. أى قدر هذا الذى يؤلمنى هكذا ! .. لما لا تبتسم لى الحياة ولو مرة ؟ .. لقد عدت لكِ يا أمى ولكنك لم تعودى ..

– لن أتركها مرة أخرى حتى لو لم أشعر بوجودها .. فقدرنا واحد وطريقنا واحد .. عشت أنا أتلم هناك وهى تشاركنى الألم هنا .. سنتجاوز كل ما مضى معاً ..

عدت لها مرة أخرى وجلست بجوارها أسرد عليها كل ما مضى من حياتى بتفاصيلها الدقيقة .. أفتح لها الصندوق الأسود بإرادتى ليرتاح قلبى حتى لو لن تسمعنى أو تجيبنى ..

– هل تتذكرين قرية الصناديلى يا أمى ؟ .. إنها تلك القرية التى تزوجتى فيها وأنجبتى إبتاك مريم .. هل تتذكرين إبنتك الصـغيرة مريم ؟ .. نظرت أمى نحوى ببراءة .. إنها لا تتذكر حتى إسـمها .. فكيف ستتذكر إبنتها !

إنهمرت دموعى بلا إرادة منى .. لقد شعرت بأننى أصبحت وحيدة مرة أخرى ..

– لقد بحثت عنكِ يا أمى لأسـتقوى بكِ ، فأنا أدفع ثمن زواجك أنتِ ووالدى سـنوات طويلة ، ولم تعد طاقتى تحتمل خذلاناً آخر .. فتلك العائلة لم تقتلنى ، ولكنها سـلبت منى كل ما أملك بتلك الحياة .. فأنا أيضاً هربت من تلك القرية ولكننى تركت خلفى طفولتى وشبابى وزواجاً هربت منه بعد أن خسـرت روحى كلياً .. اليوم وجدتك لأتنفس من جديد .. بل لنتنفس سـوياً من جديد .. لنجد مكاناً آمناً لنا فى هذا العالم .. لم تسـع المدينة ولا القرية آلآمى ، فكنت أتمنى أن يسـعنى حضنك يا أمى .. لماذا تؤلمنى الحياة هكذا يا أمى ؟

أسندت رأسى على فخذها وتمسكت بها وأنا أبكى بشدة وكأننى عدت طفلة وأختبأ فيها من العالم .. ربتت على رأسى بعطف وكأنها أشفقت علىّ دون أن تعرف من أكون .. نظرت لوجهها وهى تبتسـم بهدوء ، إنها تبتسـم لى ! .. لقد إحتضـنتنى إبتسـامتك ولم أتمنى شـيئاً آخر ..لقد تقبلت قدرى كما هو يا أمى .. سنعيش سوياً وسأنسى كل ماضىّ وأتجاوزه كما تجاوزتيه إنتِ ..

لا أعلم كيف غفوت بسهولة فى تلك الليلة .. فأنا لسنوات لا أستطيع النوم وأعانى من أرق شديد .. ولكن يبدو أننى لأول مرة أشعر بالأطمئنان .. مضت خمس ساعات وأنا مستلقية بجوار أمى فى فراشـها .. حتى أيقظنى مذعورة فجأة صـوت صـراخها وتتفوه بكلمات مختلطة وغير مفهومة ..

– ماذا حدث يا أمى ؟ .. هل كنتِ تحلمين بكابوس ؟

ردت وهى فى حالة ذعر شديدة وتتلفت حولها يميناً ويساراً .. إنه سيقتلنى .. سوف يأخذ طفلتى منى .. إنهم موجودين فى كل مكان .

– من الذى سيقتلك ؟ .. لا يوجد غيرنا بالغرفة يا أمى .

–. أنهم حولنا سيقتلونى أنا وطفلتى الصغيرة .

صمتت لثوانى أحاول فيهم أن أفهم عن ماذا تتحدث .. حتى فهمت بأنها ربما تقصدنى أنا وهى .. ومن يريد إيذائها هو والدى وعائلته .. لم أكن أدرك طبيعة مرضـــها وما تعانى منه .. حتى أدركت بأنها تتذكر أشياء من الماضى وتنسى أخرى .. حاولت تهدئتها بكل الطرق فطلبت منى أن أظل مستيقظة بجوارها ..

لا أعلم كيف تتصـــرف طبيبتها فى تلك الحالة ، ولم تكن متواجدة فى تلك الليلة الطويلة .. فجلست بجوارها أقرأ بعض آيات من القرآن حتى إستسلمت للنوم .. تأملت وجهها وهى نائمة .. لقد أغلقت عينيها عنوة لتساعد نفسها على النوم كالأطفال .. يا له من وجه يغمره الحزن .. كم تألمتِ يا أمى ؟ .. كم عانيتِ وحدك دون سند .. ليتنى هربت من تلك القرية وأنا طفلة وهرعت إليكِ ..

غلب النوم علىّ .. وإستيقظت فى الصباح على صوت هاتفى يرن .. إنها وفاء تطلب منى مقابلتها .. فأخبرتها بأن والدتى بحاجة لى ، فلا يجب أن أتركها حتى عودة طبيبتها ..

حضرت وفاء لزيارتى ولم تكن تعلم بمرض والدتى ..

. كيف ستتنجزين عملك فى ظروف مرض والدتك تلك يا مريم ؟ .. أنتى تدركين جيداً بأن الكاتب يجب أن يكون ذهنه صافى تماماً حتى يستطيع التركيز فيما يكتبه .!

ـ لا أعلم كيف ستمر الأيام يا وفاء .. كل ما أعلمه الآن هو أنى يجب أن أكون بجوار والدتى ، فأنتى تعلمين كيف عانيت من أجل لقائها .

ــ أتمنى أن يكون وجودها معكِ طاقة أمل جديدة تغير حياتك يا مريم .. فأنا أعلم بأنك تحتاجين لها حتى وهى مرضة هكذا .

لقد إعتقدت بأن وجود والدتى معى سيغير حياتى ، ولكنها لم تتغير كثيراً .. فكلانا تعلم الصمت لفترات طويلة خوفاً من التحدث عما يؤلمه أحياناً أرى الألم بعينيها تحتبس بداخلهما الدموع ..لا أعلم كيف أساعدها وأنا مثلها تماماً أشعر بأن ذكرياتى تلاحقنى أينما ذهبت ... ولم تتغير الرتابة التى أشعر بها فى المنزل ، بل زاد عليها صمت والدتى وشرودها الدائم .. فهى تعيش فى عالمها الخاص ، "او ترغب فى أن تعيش فيه بإرادتها".. .. وأعيش أنا فى عالمى الخاص بين أوراقى ورواياتى .. أكتب بشراسة لأتناسى بأن واحاً من أهم أحلامى قد تحطم .. فوالدتى التى عشت لسنوات طويلة أحلم بلقائها ، وأرغب فى أن تكون سند لى ، باتت تحتاج الىّ لأساندها فى مرضها .. أشعر أحياناً بأنى أنانية للحد الذى يجعلى أثور بداخلى على واقعى المرير .. أثور على سنوات مضت .. وسنوات لا أعلم كيف ستكون ..

***

لطالما أحببت سورة مريم فى القرآن الكريم .. كيف تحملت السيدة العذراء كل هذا الشقاء بمفردها ! .. كيف ساعدها الله فى أن تتحلى بالقوة لمواجهة ما كتبه لها .. كانت تتعبد لله وهى تتألم ، لا تعلم شيئآ فى الحياة سوى أن قدرها محتوم .. لم تكن تعلم بأن رحمها يحمل نبينا عيسى سلا م الله عليه ..أشعر بأن من سبقونا كانوا أكثر منا صلابة أمام أقدارهم .. حين سمعت بأن " لكل منا نصيب من إسمه " ، كانت تسعدنى تلك الجملة حتى لو كانت مزيفة .. فياليتنى كنت أتحلى بجزء بسيط من ثبات وصبر السيدة العذراء ..

عندما قابلت عادل للمرة الأولى لم أكن أعلم بأننى سأقع فى عشقه .. لم أكن أعلم بأننى سأحتاج للصبر والقوة لأستطيع الهروب منه .. لم أكن أعلم بأن هروبى منه سيؤلمنى هكذا ! .. فعندما أخبرت صديقه آدم بأننى لا اليق به كحبيبة ، كنت أعلم جيدآ بأن كل شئ سيقف فى طريقنا .. سيجتمع على فراقنا كل شئ فى الكون .. فهو رجلآ يمتلك كل شئ ، وأنا ينقصنى كل شئ ..

أتذكر حديثنا يومآ كان ينظر لى نظرة طويلة وكأنه يتأملنى .. كنت أشعر حينها بالخجل الشديد ..

إبتسم إبتسامة عريضة :

– لم أتعرف يومآ على فتاة تمتلك كل هذا الخجل .. كلهن كانوا متشـــابهات فى جرأتهن .. إنتِ مختلفة كثيرآ يا مريم .. مختلفة عنهن كفرق الســـماء بالأرض .. لا أعلم ما المميز فيكِ ؟ ..

لكننى أعشق جميع تفاصيلك .. عيناك الواسعتان ، وشعرك المنسدل بإستقامة على ظهرك .. أعشق ملامحك البريئة برغم شراستك حين تغضبين .. أتعلمين ماذا أعشق فيكِ أيضآ ؟

إبتسمت .. هل هناك صفات أخرى ؟ .. أظن بأنك تبالغ كثيرآ فى وصفك لى يا عادل .

– بل أبالغ فى عشقى لكِ .. فأنا أعشق فيكِ ما لا يمكن أن يحبه رجلآ غيرى .. أعشق كبريائك الذى يجبرك على الهروب منى دائمآ .

إرتبكت بشدة .. ولكن هروبى لم يكن بسبب كبريائى يا عادل .

– وما سبب هروبك ؟

– نحن لم نكن يومآ متشابهان فى شئ .. فلكل منا عالمه الخاص الذى يتكتم على ما فيه .

– أتمنى أن يمنحنى الله فرصة وأدخل لعالمك المستتر خلف حصن منيع .. فلتطلبى أى شئ تتمنيه حتى لو بعيدآ وألبيه لكِ يا مريم لأثبت كم أحبك .

– نظرت نحو السماء وأشرت له نحو نجمة بعيدة .. فلتجلب لى تلك النجمة البعيدة إذآ .

– ضحك بشدة .. هل يمكن أن يجلب رجلآ النجوم لحبيبته ؟ .. إنها من المعجزات ، وقد ولى هذا الزمن .

– نعم .. أنت محق .. فلن يجمع بيننا سوى معجزة .. وقد إنتهى هذا الزمن .

– رد بهدوء .. أنا لا أعلم ما تعانيه يا مريم .. ولا أعلم ما الذى يحول بينى وبينك .. ولكن أعلم جيدآ بأن لو كان بإستطاعتك أن تكونى لى فستكونين .. ولكنى مطمئن بأن قلبك لى وهذا يكفينى .

– رددت بغصـــة .. أتمنى أن تدرك بأن ما يحول بيننا لن يمحوه حبك لى .. فما بيننا مســجون بداخل صندوق أسود أحمله بداخلى منذ خلقت .. فلا أحد يستطيع أن يخرجه منى .

كانت تلك الكلمات آخر ما دار بيننا .. فقد قررت بعدها الهروب من عالمه حتى لا يعيش متأملاً فى أن يجمعنا القدر .. ولكننى لم أســتطيع إنتزاعه من داخلى .. لم يفارقنى حتى بعد أن فارقته أنا .. يعيش بداخلى كروحٌ أخرى تســكننى .. لم تمر لحظة فى حياتى بدون أن أســمع صــوته يتحدث معى ويطلب منى العودة .. وكل ما أملكه هو دعواتى له ..

أصلى فى محرابى وكأننى أتعبد لله من أجله فقط .. أدعوا من أجله ولا أتذكر دعواتى لنفسى بما أتمناه .. أقوم بصــلاتى كاملة ولكنى فى وادٍ غير وادٍ .. قلبى معه وعقلى ضــائعآ بينه وبين صلواتى .. لا أعلم كيف أجتاز تلك المحنة التى أردى بى فيها قَدرى ، ولا أعلم كيف سأنجو من ضياعى ، ولا أعلم كيف سأواجه ضميرى الذى يُعنفنى كلما دعوت الله من أجله وتناسيت نفسى ..

حين قال جلال الدين الرومى : يومآ ما سـيأخذك قلبك لمن تحب ، وسـتهتدى روحك إليه .. فلا تسـتسـلم فى غيابات الألم الحزين وإنه يومآ ما سـيكون هذا الألم هو الدواء ، أنه صـدق .. فقد أخذنى قلبى إليه .. وترابطت أرواحنا .. وإعتنقته كعبادة .. فعشـــق ذلك الرجل يميتنى و يحينى .. ولكن ماذا عن الألم .. فأمرأة مثخنة بالألم مثلى كيف لها أن تتخلص منه بتلك السهولة !

كيف أتخلص من تفكيرى العالق به ؟ .. كيف أضـع أمامه القوانين التى فرضـت علىٌ وأجبره أن يشاركنى تلك القوانين ؟

كيف أهوى به داخل سراديب روحى ، وأنا أخاف أن أمر من تلك السرايب صدفة ؟ ..

لقد حاولت الهروب منه مراراً ، حتى أصـــبح الهروب عادة من عاداتى .. والإبتعاد عن الناس هوايتى المفضـلة التى باتت ترضـينى أكثر من قراءة رواية أحبها .. لا أرد على هاتفى حين يرن .. أهملت الكتابة التى أصـــبحت جزء من حياتى .. أقضـــى يومى وأنا صـــامتة .. لم تدوم إبتسامتى معه طويلاً ، ولا إختفت مرارة أيامى .. ولا ضاعت من عقلى الذكريات .. فالقرية ومن فيها مازالوا عالقين بى ..

أشعر بأننى مسلوبة الإرادة أمام ذلك القدر .. "أو ربما أسير مع ذلك القدر مسلوبة الإرادة كباقى أقدارى" ، ولكنى للمرة الأولى أعشـق قدرى برغم الألم .. أعشـقه لمجرد أنه أحيا بداخلى الأمل ، حتى برغم يأسـى من الوصـول لدعواتى .. أعشقه برغم صـمتى وعدم قدرتى على البوح بما أريده .. حتى لو تألمت منه ..

***

أصـــبحت رنة هاتفى تقلقنى كثيراً ، فالســـيد رياض يتصـــل يومياً ليعرف ماذا قررت .. فأنا منذ أسابيع فى حالة صمت وكل ما يشغل تفكيرى ما طلبه منى السيد رياض ، أن أجد طريقة لأعلن هويتى بها للصـحفيين ؟ .. ولا هناك مجال أمامى للرفض .. فجميع العاملين بالدار ووفاء أيضـاً يرغبون فى أن أظهر هويتى للعلن وأتوقف عن الإختباء والتســـتر خلف هاتان الحرفان (م.ح) هاتان الحرفان اللذان طُبِعوا على جميع مؤلفاتى ورسـائلى لقراء باب بريد الثلاثاء .. ويشـدد علىَ السـيد رياض انه يجب أن يزال السـتار عن تلك الكاتبة الغامضـة .. فقد مرت سـنوات وأصـبح

الكثير من قراء رواياتى يتسائلون من تكون كاتبة تلك الروايات ؟ .. فهو يعلم بأنى لا تستهوينى الشهرة كما يلهث ورائها آخرون .. تلك كانت الأسباب التى أقولها للسيد رياض عندما يطلب منى فى كل مرة أن أعلن عن هويتى لمحبينى من القراء وأن هذا من حقوقهم .. لكننى لم أفكر يوماً فى أن أكون بين صفوف المشاهير .. بل الأمر زاد تعقيداً ايضاً بعد أن جربت العشق لأول مرة فى حياتى .. فكيف أعلن هويتى ويعرف عادل من أكون ؟

لا يعلم كيف عشت .. وكيف عانت .. وكيف كانت طفولتى وشبابى .. لا يعلم أننى هى كاتبته المفضلة التى عشق حروفها وتمنى أن يقابلها صدفة ليعرف من تكون وكيف تكون ملامحها .. ولا يعلم اننى هى تلك الفتاة التى عشقها سراً وعلناً .. لا يعلم أنه ليس الرجل الوحيد الذى مر بحياتى ، ولكنه الرجل الوحيد الذى مر بقلبى وإستوطنه ..

كيف أخبره بكل ما ممرت به دون أن أخاف من نظرته لى بعدها ! .. خوفى من مواجهته كانت أكبر من عشقى له ، فقد أجبرنى الخوف على الهروب الدائم منه .. واليوم يجبرنى أن أقرر ماذا سأفعل .. لم يترك لى القدر فرصة للأختيار بين الكثير من الحلول .. ولكنه ألقى بى بين خيارين كلاهما مر .. إما أن أعلن هويتى ، أو سيعلنها السيد رياض بنفسه ..

كان قرارى الأخير أن أهرب من مواجهة عادل .. إخترت الصمت بديلاً عن العودة مرة أخرى له ، فمصيرنا ليس واحداً ، ولم يُكتب لنا ان نكون كياناً واحداً ، أو هكذا كان إعتقادى أنا .. إخترت أن أعود للتوحد الذى كان يقتلنى ولكنه أهون من سرد حياتى بتفاصيلها للصحفين ولعادل .. ولكن قرارى سهل على السيد رياضوالجميع فقد أزعجهم كثيراً .. فعندما علم السيد رياض بقرارى .. بعث لى برسائل متتالية يحثنى فيها على العدول عن قرارى .. وأن هذا القرار سوف يكبد دار

النشر خسارة كبيرة ، وأن قرارى لم يكن منصفآ لى أيضآ ، وأننى سوف أخسر ما حققته من نجاح .. ولكن قرارى كان حاسـمآ تلك المرة .. فأخبرت السـيد رياض بأننى سـأتقبل أى خسـارة مادية ومعنوية يلقيها على عاتقى .. ولكن لن أتراجع عن قرارى ..

ولكن السـيد رياض كان أكثر صـرامة مما توقعت .. فقد عمل على تغيير كل القواعد التى وضـعتها لحياتى .. أراد أن يخلصـنى من ذلك الحمل الثقيل .. لم يتخذ لنفسـه دور البطل أو صـديقه فى روايتى .. ولكنه أختار دور الطبيب الذى يقوم بجراحة عاجلة لمريض ميؤوس من شفاؤه .. فهو يعلم بأن لا أحد قادر أن يجبرنى عن العدول عن قرارى سوى أن يضعنى القدر فى المحنة مرغمة .. فقرر السيد رياض أن يستأصل جذور الخوف والهروب من داخلى ..

بعث برسـالة خاصـة من مجهول مفادها " أعلم أن تعشـق روايات الكاتبة (م . ح) ، فأردت أن أخبرك بأنها ستكون موجودة بدار الأصدقاء غدآ ،إذا أردت أن تحضر حفل توقيع روايتها الجديدة "

حين شاهد عادل تلك الرسالة كانت دهشته تفوق سعادته بمقابلة كاتبته المفضلة .. فلا أحد يعلم بعشقه لروايات تلك الكاتبة سوى مريم وصديقه آدم فقط .. صاح لصديقه آدم قائلآ :

– لقد بعث لى شخص مجهول برسالة عن روائيتى المفضلة .. ولا أحد سوى أنت ومريم تعرفان هذا الأمر .. هل تمزح معى يا آدم !

– لا ، لم أمزح معك فى هذا يا عادل .. ربما تكون مريم هى من بعثت لك بتلك الرسالة

– إبتسم عادل إبتسامة عريضة .. هل تعتقد أنها عادت لى حقآ يا آدم ؟

– لا تخسر شئ إذا ذهبت فى الموعد فلن يكتب لك أحد إسم دار شهير هكذا الا إذا كان هناك شئ هام

إنتظر عادل لليوم التالى على الجمر .. فكلتا عشـــيقتاه يهمه أمرهما .. فلطالما حلم بلقاء كاتبته المفضلة .. وتألم فى فراق الأخرى ..

لم يكتفى السيد رياض فقط بإخبار عادل عن مقابلتى فى دار النشر ، بل نظم مؤتمراً عاماً دعى فيه الصحفيين والسيد فريد والسيدة حكمت ، وكل من يرغب فى معرفة هوية الكاتبة السرية أن يحضر للدار للقائها .. خطط بإتقان ليجبرنى على مواجهة العالم ..

ذهبت لمقابلة السيد رياض فى اليوم المحدد حسب طلبه منى بحجة أن ننهى بعض العقود بيننا .. ولم أكن أعلم بأنه مخططاً بأن يرغمنى أن أعلن هويتى للجميع و لعادل أيضـــاً .. كان الصـــحفيون ينتظرون خارج الدار ويقف بينهم عادل وتعلو وجهه نظرة قلق ، خوفاً من أن يكون الأمر مجرد مزحة من شـــخص غريب .. حين تقابلت عيناانا مرة أخرى بعد غياب طويل .. شعرت بأن العالم قد توقفت حركته .. وبقينا أنا وهو فقط ننظر بعينا بعضنا مطولاً .. لم أسمع حينها أصوات الصحفيون الصاخبة وهمهماتهم .. لم أرى هؤلاء القراء المتكدسين أمام الدار .. لم أرى سوى عادل ولم أسمع سوى صوته وهو ينادى بإسمى .. وقفت متحجرة أمامه لثوانى حتى إستوعبت بأنه هو .. حبيبى الذى غادرته ولكنه مازال ينتظرنى .. عشقى المستحيل .. شعرت بالإرتباك الشديد وأنا أحدثه :

– كيف علمت بوجودى هنا يا عادل ؟!

– أين كنتِ يا مريم ؟ .. كيف تتركين عاشقك يموت بدونك ؟

– أخبرتك بأن بيننا ملايين الحواجز ، ولن يستطيع أحداً منا تخطيها يا عادل .

إقترب منى وكأنه يريد أن يعانقنى أمام الجميع .. أن يخبرهم بأننى حبيبته : لكننى أخبرتك أيضاً بأن تمنحينى فرصة لأتخطى تلك الحواجز يا مريم .. أمنحينى إياها الآن يا مريم .. وأمام الجميع .

تغرغرت عيناى بالدموع .. لا أعلم كيف أخبره بكل ما أخفيته عنه ؟ .. أبىّ كبريائى أن يضعف أمامه ، فما سيعرفه عنى سيشحن قلبه بالبغض تجاهى ..

– يجب أن ترحل من هنا يا عادل .. فلن يكون بيننا رابط ذات يوم .

إستدرت لأدخل الدار وأتحدث مع السيد رياض عن ما يحدث .. فوجدته يخرج للصحفين ليعلن بأننى الروائية السرية التى إنتظرها الجميع .. هرول الصحفيون نحوى مسرعين ينهالون على بالاسئلة .. " من أنتِ .. لماذا لم تعلنى هويتك منذ سنوات .. هل تعيشين قصة حب .. هل أنتى متزوجة .. لم أسمع تهليلهم ولا حديثهم .. ولم أدلى وقتذاك بأى تصريحات خاصة بى فقد كان كل ما يشغلنى هو عادل الذى إنقلبت توقعاته حين علم بأن حبيبته الهاربة هى نفسها كاتبته التى تمنى مقابلتها ..

.. فهرولت مسرعة أبحث عن عادل هنا وهناك .. ولكنه رحل دون أن يتفوه ببنت شفة .. رحل دون أن يخبرنى بما يجول بعقله تجاهى .. .. ماذا سيكون رد فعله ؟ .. كيف سيتخطى تلك الأكذوبة ؟ .. أنا حتماً فى نظره تلك الفتاة التى أضمرت هويتها عنه ، وانا الفتاة التى أجبرته على أن يتألم فى رحيلها عنه .. كيف سأدافع عن نفسى ؟ .. وكيف سأجد عذراً يمحى ما سببته له من ألم ؟ ..

حتماً سيكرهنى ..

لم يكن يعنينى غيره .. ولم أكن أرغب ســـوى فى قلبه .. فلم يحبنى أحد كما أحبنى هو .. ولم يتعلق قلبى بعشق أحد كما عشقه هو .. لماذا يؤلمنى قدرى الى هذا الحد ! .. لماذا يحرمنى من السعادة !

هكذا إنقطع خيط الأمل الوحيد الذى كان يبقينى أتنفس .. فأنا لست مختلفة كما كان يعتقد عادل ، بل أنا مثل جميع الفتيات .. فجميعنا نرغب أن يربط بيننا وبين الحياة قصــة عشـق نكون فيها كما نحن .. ببرائتنا التى لم يشــوهها العابرون .. بطفولتنا التى لم تظهر ســوى مع من نحب .. بالبريق الذى يغمر عيوننا حين نكون مع من نحب .. بإبتسامتنا البسيطة .. فقد خسرت كل هذا برحيل عادل ..

إقترب منى الســيد رياض وربت على كتفى بهدوء محاولاً أن يخفف مما أشــعر به من مشــاعر مختلطة بين الخوف والصدمة والألم ..

– هل هو حبيبك الذى أضمرتى هويتك عن الجميع بسببه ؟

– لماذا فعلت ذلك ســيدى ؟ ، الم تفكر بى ولو لثانية ، كيف ســأواجهه بعد أن رحلت عنه فجأة ؟

– بل على العكس فقد فكرت فى أن المواجهة ســـوف تكســـر حاجز الخوف الذى بناه عقلك ووضـــعه بينك وبين عالمك الخارجى .. الآن أنتِ مُجبرة أن تواجهيه يا مريم .. الآن يجب أن تواجهين الوحش الذى صنعتيه بنفسك وكبر حتى صار يخيفك الى هذا الحد .

– ولكنك لا تعلم الى أى مدى أخاف يا سيدى ، فأنا لم أصنع ذلك الوحش بنفسى ، بل صنعه الآخرين بداخلى حتى يظل يُخيفَنى طوال حياتى ، وكأنهم أرادوا أن يظل خوفى الى الأبد .

– بل أنتِ سمحتى لهم بذلك .. واليوم يجب أن تصوغى لكِ قواعد جديدة ليسير على خطاها الباقيين ، اليوم سوف تعلنين عن هويتك للعالم وتبدأين بأولى خطواتك نحو الشهرة التى تنازلتى عنها للآخرين طويلاً .

– لم يبقى لى شئ يجعلنى مشدوهة للحياة يا سيدى .. فقد رحل عادل ورحلت معه أمنياتى فى البقاء .. فهو لم يكن جسد يعيش معى فى مكان واحد ، بل كان روح أخرى بجسدى .. أكتب له .. وأعيش لأنى أتنفسه فقط .. لم يتبقى لى سوى قوقعتى التى صنعتها لنفسى بعيداً عن كل الصراعات الدنيوية ..

عدت للمنزل وأنا أشعر باليأس .. أشعر بأننى أصبحت وحيدة .. أغلقت باب غرفتى بإحكام وقررت أن أنام أطول وقت حتى أهرب كعادتى من الواقع .. فقد أصبح الهروب إحدى وسائلى الممكنة للخلاص من الألم .. لنسيان العالم والولوج الى عالمى الخاص ..

***

إستيقظت فى صباح اليوم التالى وأنا فى حالة يأس شديدة .. مستلقية على مضجعى ، لا أرغب فى رؤية ضوء الشمس .. أنظر نحو هاتفى الذى لم يتوقف عن إصدار أصوات إتصالات

الصحفيين .. أغلقته متعمدة حتى أتخلص من الإزعاج .. أغمضت عينى مرة أخرى أحاول فيها النوم حتى لا أضطر للخروج من الغرفة .. لم تمر دقائق على غفوتى حتى سمعت خارج الغرفة أصوات صراخ والدتى والطبيبة المساعدة لها وأصوات صياح أشخاص لا أعرفهم بالخارج .. إعتقدت للوهلة الأولى بأن هناك دخلاء فى منزلى .. .. هرولت من غرفتى إليهما مسرعة .. وجدت والدى وزوجى قد باغتنا .. ويمسكان بوالدتى وهى تصيح " أتركونى " وتقف طبيبتها فى إحدى زوايا الغرفة ترتعد خوفآ .. ويقف بضع من رجال العائلة منتشرين فى أرجاء المنزل ..

– صرخت خائفة مندهشة .. والدى ! .. كيف علمت بمكانى !

رد (بدر) عوضآ عن والدى الذى أمسك بيد والدتى بقوة .. وعيناه مكتظتان بالبغض :

لقد شاهدناك على إحدى القنوات .. شاهدنا عارك الذى هربتى من القرية لأجله .. هل هذا ما كنتِ ترغبين فيه ؟ أن يكون إسمك كالمضغة فى أفواه أهل القرية ؟ !

نظرت نحو عيناه اللتان أصبحا يتطاير منهما الشرر .. ومر فى رأسى فجأة شريط ذكرياتى معه ومع ولدى حين كانا يضربانى .. إرتعدت وتراجعت خطوات للخلف خوفآ من بطشهما .. وبدأت أتفوه بكلمات كاذبة حتى أنجو منهما ..

– أرجوك يا على أن تعذرنى وتسامحنى .. لم أقصد أن أهرب منك ، ولكنى رحلت للبحث عن والدتى ..

ولكن والدى الذى تجاوز عمره الخمسين عام لم ينسى ما تركته له والدتى من إرث مكون من العار فقط .. فأمسك ذراعها بقوة .. وبدأ يوجه لها سيل من الكلمات التى أجبرتها على أن تتذكر بعض ما مر بها .. كنت أقف بعيد ولا أستطيع مساعدتها ولا الإقتراب منهما ..

– لقد أصبحت إبنتك نسخة منكِ .. منذ ولادتها وأنا أعلم بأنها ستكون الضربة القاسمة لظهرى بعد العار الذى لحق بى منكِ .. فقد هربت من زوجها كما هربت أنتِ .. كم رجل غير زوجها قد ضاجعته فى تلك المدينة ؟ .. مع كم رجل قد خانته كما خنتنى أنتِ ؟

كانت تنظر أمى نحوه بغرابة .. فهى لا تفهم ما يقوله ، ولا تعلم من يكون ، ولماذا يمسك بها .. سألته بخوف :

– من أنت ؟! .. وماذا فعلت لك لتؤذينى ؟! .. أنا لا أعرفك .. ولم أنجب فتيات لأننى لم أتزوج !.

نظر والدى نحوها مندهشآ ومعتقدآ بأنها تنصلت من أمومتها فجأة خوفآ منه ..

– اليوم تتنصلين من أمومتك كما هربتى من زواجك .. تلك هى صفاتك ، وإبنتك ورثت جيناتك .. فهى أيضآ هربت من زوجها مثلك .

نظر نحو (بدر) وطلب منه أن يأخذنا أنا ووالدتى الى سيارته ليعود جميعآ الى القرية .. إقتربت منه أتوسله بأن لا يعيدنا الى القرية ..

– أستحلفك يا أبى الا تعيدنا الى القرية .. فوالدتى مريضة ويجب أن أكون الى جوارها هنا فى المدينة من أجل زيارة الطبيب ..

لم يهتم بما أقوله .. فأمسك بيديها وبدأ يجرها عنوة وهى تمتنع عن السير .. وأمسك بنا (بدر) حتى خرج الجميع من المنزل وبقيت الطبيبة بمفردها ..

***

أعادنى القدر مرة أخرى الى الماضـــى .. لكن تلك المرة لم أكن بمفردى بل كانت والدتى معى .. عدنا الى القرية التى هربنا من ظلم أهلها .. نسير فى شوارعها ونحن نشعر بالغربة .. فلم تكن تلك القرية هى ملجأنا من الخوف ، بل كانت هى سبب خوفنا .. كان والدى و

(بدر) يسيران متجهين نحو بيت جدتى ونحن جميعآ نسير خلفه .. نظرت نحو أمى وأنا أراقب دموعها التى تسيل بهدوء على وجهها .. إنها لا تدرك الى أين أخذها قدرها ولكنها تشعر بالخوف .. تشـــعر بأنها لا تنتمى لهذا المكان ولا تنتمى لمن ســـكنوا فيه .. نظرت نحوى بعينيها وكأنها طفلتى الصغيرة طلبت منى أمسك بيديها وأطمئنها بأنها ستكون بخير ..

أمسكت يدها بهدوء وهمست لها .. سنكون بخير أعدك بذلك يا أمى ..

إبتسمت وحركت رأسها وكأنها إطمئنت .. ولكنى أعلم بأن الخوف مازال يسكن بداخلها .. تنظر حولها تشاهد أهل القرية يرمقونها بنظرات لا تفهمها .. يهمهمون فيما بينهم بكلمات نكاد نسمع بعضها ..

" إنها والدة مريم التى هربت من القرية منذ سنوات .. إنها زوجة حامد الأولى .. من تلك المرأة ؟ .."

دخلنا بيت جدتى .. إنه مازال كما هو كئيب ويفتقر الى الدفأ .. وقد توفيت جدتى وتركت كل ما تملكه العائلة بيد زوجة والدى (أحلام) .. ســار والدى متجهآ نحو (أحلام) التى كانت تجلس على مقعد جدتى " لقد أصبحت سيدة القرية عوضآ عن جدتى " .. هتف والدى ..

– لقد أحضرتهم الى القرية كما طلبتِ .. ماذا سنفعل بهما الآن ؟

إستقامت فى جلستها .. ونظرت نحوى بإستياء .. ثم أشارت نحو (بدر) ..

– فليأخذ (بدر) زوجته ويعيدها الى منزله .. ويطلب من زوجته الأخرى أن تعاملها بلطف .. هذا كل ما نستطيع أن نفعله معها .. ولزوجها الحرية فيما يفعله بها .

تطلعت نحو (بدر) مندهشة .. هل تزوج (بدر) من إمرأة أخرى ؟! .. إذآ ، لماذا أعادنى مرة أخرى الى القرية !

إقترب والدى من أحلام وهو يهمس فى أذنها ..

وماذا سنفعل مع والدتها ؟

إبتسمت بخبث .. أنا أحتاج الى مساعدة فى أعمال المنزل .. فلتكن هى مساعدتى .

نظر والدى نحو (بدر) وطلب منه أن يذهب الى منزله وأنا معه .. صــرخت .. لن أذهب معه الى مكان .. إنه ليس زوجى .. لن أترك أمى معكما هنا .. أتركونى معها أتوســـل اليكم .. ما ذنبها فى كل هذا ؟ ..

لكن لم تنجح محاولاتى معهم .. فقد تمم زوجى قرار (أحلام) .. أعادنى مرغمة الى بيته الذى إمتلأ بأثاث زوجته (زينب) ، وأبنائهما الثلاثة الذين لم يتجاوز كبيرهم الخمس سنوات .. يلعبون

ويتقاذفون الكرة فيما بينهم .. تركنى معهم وغادر من البيت سـريعآ .. رمقت البيت بنظرة خاطفة أحاول إستعادت ذكرياتى فيه ، لم أجد سوى الذكريات الؤلمة ..

نظرت زوجته نحوى بإبتسامة مسالمة .. ثم القت علىّ السلام ..

أهلا بكِ يا أختى .. نورتى بيتك ..

إندهشت من سلاستها فى إستقبالى .. فقد إعتقدت بأنها ليست زوجته .. فكيف لزوجة أن تتقبل إمرأة أخرى فى حياة زوجها !

ولكننى فهمت سريعآ بأن هذا الحدث طبيعى من سيدات تلك القرية ..

إقتربت منى لتعانقنى بلطف .. يبدو أنها " مغلوبة على أمرها مثل جميع النســـاء " .. عانقتنى بشـدة وكأنها تعرفنى منذ زمن .. صـاحت بأولادها أيضـآ ليبادلونى السـلام .. إقترب منى الأولاد على إستحياء .. وأمسك صغيرهم ذات العامان بيدى وإبتسم ببراءة ..

هل أنتى أمى الثانية التى أخبرتنا عنها والدتى ؟

نظرت نحو الزوجة بتعجب .. هل أخبرتى أولادك بأننى سأكون أمآ لهم ؟!

ردت بإبتسـامة بلهاء .. أجل : فقد علمت من (بدر) بأنه سـحضـرك الى هنا .. ويجب على الأطفال إحترام زوجة والدهم ..

همسـت لها .. ولكننى لن أبقى هنا طويلآ .. ولن أكون زوجة ثانية لزوجك . فقد رحلت من هنا منذ ســنوات ولن أعود لما كنت عليه ســابقآ .. وحقآ لا أعلم كيف تتحملين (بدر) بفظاظته وقسوته !

- ردت بحزن شـــديد بدا واضـــحآ على وجهها .. أنا يتيمة الأبوين وليس لى أحد ألجأ اليه ، فقد إختارنى حامد لذلك تحديدآ .. فهو يعلم بأننى لا أملك غيره ..

أشـفقت عليها كثيرآ ورغبت بأن أنقذها من براثن ذلك الأسـد .. ولكن كيف أسـاعدها وأنا أحتاج لمن يسـاعدنى حتى أتخلص مما وضـعنى القدر فيه .. أدركت بأن جميع النسـاء فى تلك القرية مظلومات ومسلوبات الإرادة ..

إعتقدت بأن (بدر) أحضـرنى الى بيته مرة أخرى حتى يعيدنى كزوجه له .. ولكن قد مر قرابة الأسـبوع وهو يتجاهلنى .. ولا أعلم لماذا يتصـرف هكذا ! ، بينما زوجته زينب كانت تتودد الىّ كثيرآ حتى صارت بيننا صداقة .. فهى تقربت منى وأجبرتنى أن أتعاطف معها ..

حين شـاهدت بدر وهو يعنفها أمام أطفالها فركضـت نحوها أحميها من بطشـه .. لا أدرى لماذا فعلت ذلك ؟ .. ولكنى شـعرت بأنها إمرأة ضـعيفة وتحتاج لمن يسـاندها .. صـارت بيننا صـداقة بعد ذلك .. كنا نتحدث حديثآ مطولآ كلما سـنحت لنا الفرصـة ، عدا ذلك كانت تقضـى معظم وقتها بين أعمال المنزل والأهتمام بأولادها .. وأقضـى أنا وقتى بين الأوراق كعادتى أكتب ما يجول برأسى من أفكار ..

كان بداخلى شعور دائم بالقلق .. أفكر فى والدتى دومآ .. أتمنى لو أستطيع أن أكون معها ..

جلست فى الشرفة أناجى الله .. وأدعوه بأن يحفظها لى .. بادرتنى (زينب) وقد أحضرت مقعد صغير لتجلس بجوارى ، سألتنى : هل تفكرين بوالدتك ؟

- أجل ، أفكر بها كثيرآ .. هل تستطيعين مساعدتى فى أن أطمئن عليها ؟

– إطمأنى يا مريم ، سأذهب غداً لمنزل العمة " نواهل " وأجلب لكِ أخبارها .

أثلجت صـــدرى بكلماتها .. وأزالت عن قلبى عبءً ثقيلاً عن قلبى .. ســـألتنى بإســـتحياء وكأن فضولها من يسأل :

– هل يمكن أن تخبرينى عن حياة المدينة .. هل هناك كل شئ مختلف عن هنا ؟

– إبتسـمت .. أجل يا زينب .. كل شـئ فى المدينة مميز .. يعيش سـكانها بلا خوف .. تعيش المرأة حرة ليس عليها قيود .. تفعل ما يحلو لها .. تعمل وتنجح ويكون لها مكانـة بين الرجال تجبرهم على إحترامها .

– هل وجدتى فرصة عمل هناك ؟

– أجل .. فقد أصبحت روائية ولى مقال يصدر يومياً فى إحدى الجرائد .

صمتت لبرهة ثم سألتنى .. هل تعتقدين بأن إمرأة مثلى يمكن أن تعيش بمفردها فى المدينة ؟

– إندهشت لسؤالها .. لماذا تسألين ذلك السؤال ؟

– أجابت على سؤالى بسؤال آخر . هل مازلتِ تحبين بدر ؟

– أنا لم أحب بدر يوماً يا زينب ، بل تزوجته رغماً عنى .. لو أحببته ما كنت هربت منه .

– أعلم كل هذا يا مريم .. أنا لم أســألك بســبب شــعورى بالغيرة عليه منكِ ، بل لأننى أريد أن أكون قوية مثلك .. أنا أعيش مثل جميع النســاء هنا فى القرية .. نعيش كســبابا مع أزواجنا .. وأنا أعيش مع بدر مرغمة أن أتقبل كل ما يمليه علىّ من أوامر ويجب علىّ الســمع والطاعة ..

أشعر أحياناً بأننى تجردت من أنوثتى بسببه .. أتمنى لو كنت أمتلك الشجاعة مثلك لأرحل من هنا .. ولكنى وحيدة تماماً .. الى أين سأذهب إذا رحلت ؟ .. كيف سأنفق على أولادى بدونه ؟

– فلتحررين نفسك يا زينب .. أنا مثلك تماماً لا أمتلك عائلة .. وعندما قررت الرحيل من هنا لم أكن حينها أمتلك المال .. ولكن كان بداخلى قوة الهدف .. فكان هدفى هو البحث عن والدتى .. أما أنتِ فقوتك ستكون رعاية أبنائك .

– ولكنك إبنة أكبر عائلة فى القرية ، بل والمتحكمين بها أيضاً .. أما أنا فيتيمة .

– رددت بغصة .. وبماذا إستفدت من تلك العائلة ! .. لقد حاربتنى تلك العائلة .. وأصبحت خصماً لى .. أنتِ لا تعلمين كم عدد الأيام التى تألمت فيها من تلك العائلة .. فلتتحرين من قيودك يا زينب .. إذا كنتِ تشعرين بأنك ترغبين فى ذلك .

– لن يتركنى بدر أرحل من هنا .. سيعيدنى الى هنا مرة أخرى كما أعادك .

– لكنى لن أظل هنا طويلاً .. سيحررنى الله لأننى أثق به كثيراً .. حينها سأحررك معى .. وأحرر كل إمرأة تعيش قهراً فى منزل زوجها .. أعدك بذلك .

– كيف ستفعلين كل ذلك ؟

– لن أفعل أى شئ .. فأنا لا أملك شئ سوى الدعاء .. فقط ثقى بالله .

تنهدت بهدوء وإبتسمت وكأنها أطمأنت بخلاصها من ألمها .. طمأنتها وأنا لا أعلم كيف سأساعدها وأساعد نفسى ! .. ولكنى شعرت بأنها بحاجة للإطمئنان مثلى .. تحتاج لأن تجد من يساعدها .. إن يكون سنداً لها .. ليحررها من طغيان زوجها ..

ذهبت زينب فى صـباح اليوم التالى لتتقصـى أخبار والدتى .. وعادت لتخبرنى .. حين شـاهدت وجها الشاحب وهى تلهث .. أدركت بأن هناك أمر سئ قد حدث كما توقعت .. سألتها بلهفة :

– لماذا تلهثين هكذا يا زينب ؟ .. هل حدث مكروه لوالدتى ؟

إلتقطت أنفاســها بصــعوبة وأجابت بإرتباك .. إطمأنى يا مريم والدتك بخير .. ولكن .. لكن .. إنها تعمل خادمة للسيدة أحلام .

هلعت .. كيف تعمل خادمة ! .. إنها مريضــة يا زينب .. كيف إنتُزعت الرحمة من قلوبهم بتلك السهولة !

هرولت لبيت جدتى .. شـــاهدت أحلام تجلس على مقعدها ، وتجلس والدتى تحت أقدامها .. تصيح بوالدتى أن تدلك ساقها بلطف ..

ركضت نحو (أحلام) .. كيف تفعلين ذلك بوالدتى ! .. إنها مريضة وأنتِ تعلمين ذلك ..

أجابت بفظاظة : كيف تجرؤين على محادثتى هكذا ؟ .. إننى زوجة والدك ؟ .. تصـنعت البكاء وهتفت بحامد :

أنقذنى من هؤلاء يا حامد .

ركض والدى مســـرعآ نحوها متلهفآ : ماذا حدث ؟ .. ثم نظر نحوى بإمتعاض .. كيف خرجتِ من بيت زوجك ؟

نظرت نحوه أستجدى عطفه لوالدتى .. كيف تسمح لها أن تجعل أمى خادمة لها يا والدى ؟

أجاب بشراسة .. العاهرات لا يعملن سوى خادمات .. فلتحمدى الله بأنى قبلت بعودتها لبيتى مرة أخرى .. فقد رحمتها أحلام .

أمسكت بيد أمى وإتجهت نحو الباب .. لن أترك والدتى هنا ، سنرحل مرة أخرى .

داهمنى بدر الذى إتسعت عيناه وإمتلأت بالشر .. أمسك يدى بقسوة .. الى أين سترحلين ؟ .. هل تنوين الهروب مرة أخرى من الرية وتتركين لى عارك أعيش به ؟

أترك يدى يا بدر فأنا لم أكن لك زوجة يوماً .. ولن لأكون زوجة لك بعد اليوم .

لم ألبث أن أكمل حديثى حتى إنقض والدى وبدر بالضرب علينا .. لم أشعر فى تلك اللحظات بالألم الجسدى الذى يلحق بى ، بل ما كان يهمنى هو خوف والدتى وصراخها الذى ملأ المكان ، ونظرتها الممتلئة بالذعر وهى تتلقى الضرب من والدى زادنى شعوراً بالألم .. تملصت من بين إيادى بدر .. وهرولت نحو والدى .. إستجمعت شجاعتى وأمسكت يده لأمنعه عن جلدها ..

– لا يحق لك بأن تضربها ، فهى لم تعد زوجتك .. إضربنى أنا ، وأتركها ، فهى عانت منك ومن عائلتك كثيراً يا والدى .. سأخرج من هنا معها ولن يمنعنا أحداً منكم ..

***

فى هذه الغرف المظلمة التى أقضـــى فيها أيام ثقال .. أروح وأغدو باحثآ عن النوافذ .. عندما تنفتح نافذه سيكون عزاء ..

لكن النوافذ لا أثر لها .. أو أنى غير قادر على أن أعثر عليها ..

تلك الكلمات البائســة للشــاعر "قســطنطين كفافيس " .. تصــف تمامآ الظلام الذى بات يحيط بحياتى أنا وأمى .. لقد إنتصر والدى وزوجته وبدر علينا .. بل إنتصر الظلم على جميع الأنقياء .. فقد أعادوا والدتى الى نفس المنزل الذى سُــجنت به حين عاقبتها جدتى على تمردها .. لكنى تلك المرة شـاركتها هذا السـجن .. أشـعر باليأس .. باليأس الشـديد .. يتألم قلبى حين أنظر نحو أمى التى تقوقعت فى أحد أركان الغرفة خوفآ من بطش والدى لها .. أدين لكِ بالإعتذار يا أمى .. فلم أســتطيع أن أفى بوعدى لكِ بأن أعتنى بك ، فقد تركتك بين أيديهم تعملين خادمة لهم .. ولم أفى بوعدى لزينب المســكينة ، أن أكون لها ســندآ .. ولم أتحلى بالشــجاعة لأعترف لعادل بماضــىّ .. ولم أســتطيع المكوث فى المدينة لأنتظر عودة ريم مرة أخرى .. ولم أكن كاتبة وفية لمن أحبوا كتاباتى .. لقد خســرت كل شــئ يا أمى .. كل شــئ .. لم أعد أرى غير الظلام .. وإفتقر قلبى للأمل ..

تلك الجمل المكتظة باليأس والقهر أكاد أســمع صــداها فى كل مكان بالغرفة .. تفوهت بها ولم أكن أعلم بأن القدر يمكن أن يســعدنا كما يبكينا .. وأنه أحيانآ يمنحنا أشــخاص صــالحين فى حياتنا على هيئة حدائق .. نكون نحن بذورهم .. نذرع فيهم الحب دون أن ندرك بأننا ســنحصــد ذلك الحب كالورود المزدهرة .. ولم أكن أدرك بأننى غرســت بذور الحب فى قلوب الصــالحين

الذين تعرفت عليهم فى المدينة .. ولم أدرك بأن تلك البذور ستزدهر وتنير هذا الظلام .. فالظلام ينيره الحب دائماً .. هكذا تخلص من ظلامى .. بالحب ..

حين غبت لأيام عن صـــديقتى وفاء ، فبحثت عنى فى كل مكان .. فأخبرت الســيد رياض عن إختفائى .. وإعتقدا بأننى تزوجت سراً من عادل .. ولكن تفاجأ الجميع بأن لا أحد منهم يعلم أين أختفيت أنا ووالدتى ؟ .. فأخبرتهم الطبيبة بما حدث معنا وقتذاك .. وبعودتنا للقرية مرة أخرى ..

أغمضت عينى لأهرب من الظلام .. كعادتى فى الهروب .. غفوت لساعات لا أعلم كم عددهم .. أفاقت عينى ، أكاد أفتحهما بصعوبة على صياح وفاء ..

- إستيقظى يا مريم نحن جميعاً هنا .

لم يفيق عقلى حينها بتلك الســهولة حتى أســتوعب بأن الجميع حضــر من أجلى .. أعادت وفاء حديثها ..

- مريم .. مريم .. هل تسمعين ما أقوله ؟ .. نحن جميعاً هنا .

بدأ عقلى يســتوعب بأن وفاء لم تكن وحدها أمام عينى .. بل حضــر الســيد رياض ، والســيدة حكمت وزوجها السيد فريد " علمت بخبر زواجهما لاحقاً " .. نهضت من مضجعى وأنا أترنح .. أمسكت بى وفاء والسيدة حكمت لمساندتى .. سألتهم بذهول :

- كيف علمتم بمكانى ؟ ..

– أخبرتنا الطبيبة بما حدث معك ووالدتك .. سنغادر من هنا .. والدتك تنتظرنا لنعود الى القاهرة .

– ولكنى لن أغادر بدون زينب .

– ومن تكون زينب ؟

نظرت نحوهم مطأطأة رأسى خجلآ .. إنها زوجة بدر الثانية .

إندهش الجميع .. وكنت أعلم أنهم محقين لدهشتهم ..

– لقد وعدتها بأن أحررها من زواجها .. وستعود معنا الى القاهرة .

غادرنا القرية جميعآ ورافقتنا زينب وأبنائها .. "يبدو أنها طفح كيلها" .. لقد تصـــدت للمرة الأولى لبطش بدر لها أمام الجميع .. أبت أن يعاملها بقسوة أمامنا .. إستجمعت شجاعتها ورحلت من القرية معنا .. "ولكنها لم تحصل على حريتها كما حصلت عليها قبل مغادرتى " .. ولكنى وعدتها بأن أســـاعدها أن تنال حريتها كاملة ، وأن نغير تلك العادات البالية ، وأن يعرف رجال القرية بقيمة نسائهم .

عدت الى القاهرة .. لوطنى الذى منحنى الحرية .. ولكن عقلى ظل مشغولآ بنساء القرية .. كيف سأساعدهن فى تغيير حياتهن المؤلمة .!

حين تحدثت مع السيد فريد عن تجهيز حملة صحافية وإعلامية كبيرة لمناهضة نساء القرية ، فما لبثت أن أنهى حديثى ، حتى أخبرنى بموافقته السريعة على ذلك ..

– ما رأيك أستاذ فريد أن ندعو أيضآ منظمات حقوق الإنسان وجميع المؤسسات التى تدافع عن حقوق المرأة ؟

– ســتكون تلك الخطوة غير مســبوقة فى قرى مصــر .. فجميع من تتحدثوا فى هذا الشــأن لم يتطرقوا لأسماء القرى بشكل مباشر .

– لكنى سأتطرق لأسم قريتى " الصناديدى " بشكل مباشر يا أستاذى .. فأنا إنتمى لتلك القرية حتى لو حاولت التنصل منها .. أعرف كيف تعانى النساء هناك .. وأعرف كيف يتألمن .

– إذا نجحت تلك الحملة فســوف تكون بداية طريقك الى عالم الصــحافة يا مريم .. هل أنتى مستعدة لذلك ؟

إندهشت من حديثه فأنا لم أطمع يومآ فى منصب أو ترقية بل كل ما يشغلنى هن نساء القرية ..

– ولكن أنا لم أطلب منك مناصب فى الجريدة .

– منذ تعرفت عليك وأنا أعلم جيدآ بأنك مميزة فى العمل الأدبى وســيعلو شــأنك فى العالم الصــحفى .. فضــميرك حى .. وقلمك يتألم مثلك تمامآ يا مريم .. هيا بنا نجهز عامود خاص بقضايا المرأة من خلالك .. ما رأيك ؟

– سيكون من دواعى سرورى يا أستاذى .. فأنا يهمنى كثيرآ أن أساعدهن .

سعادتى كانت غامرة حين أخبرنى السيد فريد بصعودى سلم أخر فى العالم الصحفى .. لم أكن أفكر فيه يومآ .. ولم أعتقد يومآ بأن تلك القرية التى كانت ســببآ فى ألمى ، ســتكون ســببآ فى

نجاحى .. لم أتردد أن أعود للقرية مرة أخرى ولكن تلك المرة .. لم أعود إليها مرغمة ، بل عدت لها وأنا أحاول أن أرسم لها طريق جديد تسطع فيه شمس الحرية لكل إمرأة مقهورة .. كان قدرى تلك المرة منصفآ لى ولجميع نسائها .. توالت تقاريرى الصحفية عن نساء القرية فى العامود الخاص بى .. على أمل أن تساعدهم المؤسسات التى تعمل على حفظ حقوقهن .. فكانت كلماتى موجهة دائمآ لتلك الؤسسات .. ولكنها أصبحت تصل لنساء القرية وزاد وعيهم عن حقوقهن المهدورة .. فقد أصبحن نساء القرية حديث وسائل الأعلام المختلفة ، ومنظمات حقوق الإنسان .. فأجبروا الرجال على تصحيح عاداتهم وقوانينهم البالية .. وتغيرت القوانين لصالح النساء وقتذاك ..

حين تجولت فى أرجاء القرية للمرة الأولى بعد رحيلى عنها .. كانت المرة الأولى التى أخطو فيها خطوات ثابتة وأنا أسير فى شوارعها .. شاهدت منزل جدتى ، يقف والدى خارجه .. نظرت نحوه فخورة بذاتى .. :م تمنيت أن يفخر بى .. تمنيت أن أكون إبنة بارة به .. تمنيت أن يعانقنى ويبتسم لى وخبرنى بأنه سعيد من أجل نجاحى .. ولكنه أدار ظهره ورحل وكأنه يمقت ذلك النجاح .. يمقت أبوته لى .. وكأننى كنت سببآ فى إشاعة الفساد بين النساء .. ولكن النساء تجمعن حولى مؤيدين لى .. فمحو من داخلى القلق الذى تغلغل لقلبى عند رؤية والدى .. فقد شعرت لبرهة بأننى أخطأت حين حاولت إنصافهن ..

عدت لبيتى بعد يوم شاق فى القرية .. منقسم بين نساء القرية لسماع أحاديثن وشكواهن .. جلست بجوار والدتى التى مازالت لا تعرفنى .. ولكنها باتت تألفنى .. أمسكت يدها برفق ..

– لقد مرت الأيام الصعبة يا أمى .. سنبدأ سوياً سنوات جديدة من الأمل .. وسأعوضك عن كل ما مضى من ألم ..

ولجت زينب الى الغرفة .. جلست بخجل على المقعد المقابل لنا ..

– ماذا سيكون مصيرى انا وأبنائى بعد ما حدث يا مريم ؟ .. أنا خائفة .

إبتسـمت بهدوء .. لا تخافى يا زينب أعلم بأنك لا يجوز أن تتركين أبنائك وتبحثين عن عمل .. ما رأيك أن تكونى مرافقة لأمى هنا معنا بالبيت ؟.. وسأخصص لكِ دخل شهرى بالمقابل لرعاية أبنائك .

زفرت بشدة .. لا أعلم كيف أرد لكِ الجميل ؟ .. ولكن أعدك بأن والدتك ستكون بمثابة أم لى .

ـــ نحن أصبحنا عائلة واحدة .. وأبنائك هم أبنائى وسأظل مسئولة عنكم حتى تختارين الطريق الذى يناسبك .. أو تقررين العودة الى بدر مرة أخرى ولكن بعد أن يتعلم كيف يحافظ عليكِ .

***

" المرأة بلا محبة هى إمرأة ميته " .. مازالت كلمات أفلاطون هذه هى الأســـاس الراســـخ لكل الروايات التى كتبتها .. فالحب الأفلاطونى هو الحب الأنقى .. يخلو من حب الجســـد .. يخلو من الفراق بعد عناق .. إعتقدت أننى جربت ذلك النوع من الحب مع عادل .. لم تجمع بيننا لغة

الجسـد .. بل جمع بيننا عشـقآ روحيآ .. ترابطت فيه أرواحنا وإندمجتا حتى أصـبحا روحآ واحدة ..

فكانت محاولة رحيلى عن حياته قاسية على أرواحنا .. وكأنها تختنق ..

كانت مكالمتى له يوم قررت الرحيل تلك المرة خالية من كلمات الوداع خوفآ من أن يتمســك بى .. خوفآ من أن تســيل دموعه مرة أخرى بســببى .. فرجلآ مثله لا يعرف الخوف ، كان قدره أن يكون رحيلى عنه هو الشبح الوحيد الذى يخاف منه .. يخاف ان أتركه وحيدآ فى الحياة ..

هذا الرجل الذى تتمناه جميع النسـاء ، كان يتألم لفقدان حبيبته .. يعلم بأن عشـقها مازال ينتفض له قلبه وعقله وجسـده .. ولكنه يرفض فى كل مرة ان يبوح بما يخفيه من ألم ، فهو لم يبكى يومآ على فراق إمرأة ، ولن يسلم قلبه بتلك السهولة لها .. كان يتوقع بأنه يستطيع ان يلعب معها لعبة النسيان ، وأنها ستكون مجرد ورقة يلقيها فى الهواء وتتناثر وهو يضـحك .. لكنها مازالت بداخله ، فلا استطاع ان ينتزعها من داخله ، ولا استطاع ان يتناسى عشقه .. فقد أعتقد بأن قتل عشقها فى قلبه سيعيد له الحياة .. ولكنه قُتل معها .. كان قلبه يرغب بها بشـدة .. ولكنه قرر ان يحبها بأقل مما تستحق .. قرر أن يدعش على قلبه حتى لا يعود إليها .. فقد رحلت عنه وتركته يتعذب ..

لإعتقدت بأن القدر لن يجمعنا مرة أخرى .. وأنـه حين رحل بعد آخر لقاء بيننا ، فلن يعود .. سيتناسى عشقه لى .. سينسى عاشقته الكاذبة .. ولكن القدر يفاجأنى دائمآ بما لم أتوقعه ..

إتصــل بى عادل ويتحدث بنبرة مقتضــبة .. طلب منى أن نلتقى لنتحدث .. لم أفكر طويلآ فيما ســأواجهه فى ذلك اللقاء من عبارات اللوم .. حاولت كثيرآ ترتيب أفكارى وإيجاد ســبب أعلل به

رحيلى المفاجأ عنه ولكن دون جدوى .. فقد كان عقلى مشوشآ ورهبتى من مواجهته تشبه غريقآ بعمق محيط ، لم يجد من ينجده فإستسلم لقدره ..

حين قابلته تمنيت أن أعانقه .. أن لا نتحدث ، لا نتعاتب ، لا نتفوه بكلمة .. فقط نتعانق .. لقد إشـــتقته كثيرآ .. كانت عيناه محدقتان بى .. صـــامتآ .. ينتظر أن أبدأ انا بالحديث .. فإســتجمعت قواى وبادرت أنا بالتحدث عن ســبب إختفائى المفاجأ عنه .. وما لبثت أن أتحدث حتى صاح بقسوة :

"كيف إستطعتى أن تخفى عنى كل تلك الكذبات ؟ .. من أنتِ حتى يلين قلبى لكِ وتقسين عليه هكذا ! .. كيف ترفضين حبى لكِ وترحلين دون عذر يمحو كل ما مررت به من ألم ! "..

تلك الكلمات كانت على شـــفاه عادل حين قرر أن يثور على عشـــقه لى .. أن يتمرد على قلبه الذى خانه وإختار أن يعود لى مرة أخرى .. كان صمتى ردآ باردآ على ثورته .. فزادت ثورته .. إنه يحاول أن ينتزع كبريائى ليعيد كبريائه .. لكنه لا يدرك بأن كبريائى قد ضـــاع فى عشـــقه .. أنى حطمت من أجلك الحواجز والأســـوار التى أســـســـتها حولى خوفآ من إقتراب الغرباء .. إنه كيانى .. ثورتى .. وتمردى على كل شئ .. ذاب قلبى ضد كبريائى فإخترت أن أسير ضد التيار لأكون معه ..

– أنت لا تعلم كم الألم الذى تألمته حين قررت أن أرحل بلا مقدمات ، ولكن كل ما فكرت به هو أن أتركك لتتنفس بلا قيود ، تركتك خوفآ ان أكون عبئآ يؤلمك يومآ ما ..

– رد بحدة محاولآ الا تؤلمنى قسوة كلماته ، ربما لأنه يشعر بألمى دون أن أتحدث كما تعودنا .. فكلانا يشعر بالأخر دون أن يتفوه ببنت شفه ..

– رحيلك كان يؤلمنى أكثر ، وبأن أنفاسى لم تتحمل ، وبدونك كنت أشعر بالضياع كطفل يبحث عن أمه بكل مكان .. كنت مشوشآ ومشوهآ من داخلى .. حاولت إنتزاعك من داخلى مرارآ ولكن دون جدوى وكان ذلك يؤلمنى أكثر .. كان ألمى أقوى من أن أتحمله بأصـــبت به كل من كان يقترب منى .. لقد عاشرت الكثيرات من النساء وقت غيابك عقابآ لكِ ، لكى اؤكد لنفسى بأنك لا شئ بالنسبة لى .. ولكننى كنت أبصرك فيهن جميعآ .. كانت أعين بعضهن تحدثنى بأن لا ذنب لهن بعقابى هذا ، ولكننى كنت كوحشآ يريد أن يقتص من جميع النساء إنتقامآ منكِ أنتِ يا مريم .. ولكنى فى كل مرة أكتشــف أننى أعاقب نفســى بكِ .. فقد أصــبح عشــقك يحتلنى .. فكيف إستطعتِ الرحيل بتلك السهولة يا مريم ؟ .. ليتنى كنت قويآ مثلك لأرحل .

– أخبرتك مرارآ بأن القدر أقوى منى ، ولن أكون تلك الفتاة التى تتمناها يا عادل .. لقد إختلقت مئات الكذبات حتى لا يميل قلبى إليك .. حتى لا أقع فى عشـــقك .. حينها لم أجرؤ أن أمحو حاجز الكبرياء بيننا وأكشف أمامك ضعفى .. كيف أسرد لك قصة خذلانى من والدى وعائتلته .. أو أصـــف لك كيف خارت قواى أمام مرض والدتى .. أو كيف تخلىّ عنى الجميع .. حاولت الرحيل حتى لا أشعر بالضعف وأعود لسنوات لم أجنى منها سوى علامات العنف التى مازالت موشومة على جسدى ..

– كيف ستظل عاشقآ لقلب هو ملك لغيرك ! .. لقد تمنيت فى لحظات ضعفى أن ترحل أنت عنى وتحطم قلبى ، حتى لا أرحل أنا وتتألم أنت .. ليتنى لم اتعود على الســـعادة وانا اتحدث اليك يا عادل .. ليتنا تقابلنا فى أزمنة أخرى .. ليتك أجبرتنى أن أعاهدك على البقاء .. فقد أصابتنى معك لعنة العشق كما كنت أصفها لك دائمآ .. فهذا قدرى أجبرنى أن أعشقك ، وأنا اعيش بلا جدوى ولا أمل فى الحياة ..

لقد تعودت ان تبحث عنى ، بينما أنا أبحث عن قدرٌ يمنحنى الســـعادة والأمل الذى فقدته منذ خُلقت ..

– وما ذنب قلبى أنا يا مريم ليقع فى عشـق قلب جبان إختار الهروب ولم يحارب من أجلى ؟ .. لقد إخترت أن أخوض من أجلك مئات المعارك .. وأشـرس المعارك تلك التى خضـتها أمام قلبى .. فقد حاولت مراراً أن أغتاله حتى لا يعود إليكِ .. ولكنه إنتصر علىّ وإختار عشقك .

– لم يكن ذنبك أو ذنبى يا عادل .. هو قدرنا .. فقد أجبرتنى أن أواجه ما كنت أخشـاه لسـنوات طويلة .. كنت أعيش فى عالمى الخاص .. عالم لا يعلم عن الحب شـئ .. وانا لطالما إبتعدت عن كل الرجال خوفاً على قلبى .. فقد تألم قلبى من رجال لا يدركون معانى للرحمة ، ولكنك علمتنى أن أعشـقك ، شـعرت بأننى خلقت من جديد كطفلة نسـيت كل ما عانته ، وأصـبحت متعطشـة للعشق .. أن تمحو كل ما مضـى وتخطو خطوات جديدة نحو الأمل .. عشقك لى هو القوة التى تسلحت بها لأنتصر فى جميع معاركى .

مضـت سـاعات لا أعرف عددهم ونحن نتحدث ، نتعاتب .. نلقى اللوم على بعضـنا .. نسـرد لبعضنا قصصاً عشناها وألم مازال أثره بداخل كلاً منا .. ننهار بكاء أحياناً .. فقد كان ألم فراقنا كان ســـبباً فى فتح الكثير من الألام التى أخفاها بداخله هو أيضـــاً لســـنوات .. أدركت بأننا متشابهان فيما نعانى منه بإختلاف أسباب الألم والأشخاص والأحداث ، ولكن لم يستطيع كلانا نسـيان ألمه او إخراجه من الصـندوق الأسـود بداخله .. كان قراره بأن نتناسـى كل ما مضـى مفاجأة لى .. زادنى خوفاً من المجهول .. فهل قرر قدرى أن يمنحنى فرصـة أخرى نحو السـعادة بتلك السهولة ! .. ولكن عادل لم يترك لى مجالاً للتفكير طويلاً ، باغتنى سريعاً دون تردد ..

– مريم .. يجب أن تقررين هل ترغبين فى الزواج بى ؟ .. ان نكون قلباً واحداً ، وأن نواجه هذا العالم سوياً .

خفق قلبى سـريعاً ، ودرات فى رأســى العديد من الأسـئلة .. هل يمكن أن أكون جزءاً من عائلته التى لا تعرف من أكون ؟ .. كيف ســأواجه عائلته وأنا أعلم جيداً بأن الفروق بيننا شــاســعة .. كيف سـتتقبلنى عائلته التى طالما تمنت له الزواج من إبنة عمه التى لا ينقصـها سـوى أن يكون عادل زوجاً لها ! أعلم أننى لن أسـتطيع أن أبدأ معركة أخرى فى تلك الحياة .. فأنا لا أمتلك من القوة ما يكفى لخوضـــها .. انا منهكة داخلياً من خوض الآف المعارك التى لا تزال آثارها داخل جسـدى وروحى ! .. ربما لم أخطط يوماً لتلك المعركة .. ولكنى سـأخوضــها بكل ما أوتيت من قوة .. فقوتى التى أمتلكها هى العشــق الذى أنار لى طريقاً جديداً لأســير بخطى ثابتة .. فكيف أفلت يدى من يد مُدت الىَ ومنحتى تلك القوة ! ..

***

حين تزوجت بدر لم أكن أدرك بأن ذلك الرباط المقدس يجب أن يجمع بين عاشـــقان .. أدركت بأن قلوبنا تلتقى مع من يشــبهها .. من يقاســمها الألم قبل الســعادة .. من يفهمها .. هكذا كان الرابط بينى وبين عادل .. تقاسمنا ألم الماضـى وألم الفراق وتقاسمنا أحلامنا .. وأصبحنا نتقاسم مستقبلنا ..

تلك هى للمرة الأولى التى أشعر فيها بمشاعر مختلطة ، ما بين الخوف والقلق والسعادة والإرتباك الشديد .. تلك المشاعر التى أشعر بها للمرة الأولى ، وكأننى أعيش مراهقتى لأول مرة .. كل ما أشعر به له بريق خاص .. وكأن الشمس فى ذلك اليوم أشرقت لى أنا وحدى .. شاركتنى وفاء كعادتها ذلك اليوم الخاص .. شاركتنى خوفى وقلقى ..

– هيا يا مريم .. لم يتبقى لديكِ وقت كافى لتتزينين .

زفرت بقوة وأنا ألقى بملابسى على المقعد : لقد إحترت يا وفاء ، ماذا أرتدى من هؤلاء .. فاليوم يجب أن أرتدى ثياب أنيقة تناسب عائلة عادل .. فأنتِ تعلمين أننى سأقابلهم للمرة الأولى .

ضحكت وفاء بشدة : ولماذا كل تلك الحيرة يا مريم .. أنتِ جميلة فى كل حالاتك يا عزيزتى .. فقط إرتدى ما تشعرين بأنه يناسبك أنتِ وليس هم .

– أنتِ محقة .. إذآ سأرتدى ذلك الفستان الأسود .. لقد أحبه عادل حين كنا مدعوان على زفاف أحد أصدقائه .

وقفت أمام المرآة قرابة الساعة أحاول أن أختار تصفيفة شعر مناسبة .. إتصل بى عادل فى تلك الساعة أكثر من مرة " كان متوترآ أكثر منى " ، يحاول فى كل مرة أن يطمئننى بأن كل شئ سيكون بخير ، ولكننى أشعر بأنه يبدو خائفآ أكثر منى ..

خرجت من المنزل مسرعة .. وجدت عادل ينتظرنى بسيارته الفارهة .. حين شاهدتها إتسعت عيناى .. حدقت بها لبرهة ..

ضـحك عادل مازحآ : ماذا بكِ يا مريم .. هل أعجبتك سـيارتى أكثر من تلك البدلة الأنيقة التى أرتديها !

– رددت بقلق : هل هذه سيارتك ؟

– أجل .. لما كل هذا القلق يا مريم ؟

– لم أكن أعلم بأنك ثرى لهذه الدرجة يا عادل !

إقترب منى بهدوء .. عائلتى ثرية .. لكنى شخصآ عاديآ عشق أديبته المفضلة .

كان يحاول عادل أن يقلل من حدة قلقى .. ولكنه لم يستطيع أن يمحيه بالكامل .. فحين شاهدت قصر عائلته الفخم الذى يشبه قصور الملوك .. يمتلئ القصر بالعديد من التحف الأثرية الأصلية ، وكأن كل قطعة فيهم مأخوذة من متحف خاص ..

– همهمت : يا له من قصر كبير ، إنه أكبر مما توقعت .

– سألنى عادل مبتسمآ : هل تتحدثين عن القصر ؟

– إبتسمت خجلآ ، كيف قرأت أفكارى ؟

– أعلم إنه كبير للغاية ولكنه لم يكن يومآ سببآ فى سعادتى ، ولا حتى من يسكنون فيه .. لطالما حلمت بأن أمتلك بيتآ صـــغيرآ ولكن مع عائلة تهتم بى وبما أريد وليس بما يريدان هم .. وأنا معِ أمتلك ما أريده يا مريم وهذا يكفى ..

أمسَـــك يدى براحة يحاول طمأنتى .. كانت عيناه مغمورتان بنظرات الفخر ونحن نســـير داخل القصـــر متجهين نحو والدته التى لم تقف فى إســتقبالنا .. كانت تجلس فى إنتظارنا حول طاولة العشاء .. لم تلتفت لنا .. بل تنظر بإستياء نحو العاملين بالقصر ..

القينا عليها التحية .. ردت ببرود شديد ، وأشارت لنا بالجلوس .. جلسنا حول الطاولة فى صمت لم يسمع لنا غير أصوات الملاعق تنازع الأطباق .. يمر الوقت ببطأ شديد وملل .. ينظر بعضنا لبعض خلسـة فى صـمت .. أما والدته فكانت ترمقنى بنظراتها ، وكأنها تسـألنى من أنتِ ؟ كيف إسـتطعتى سـرقة قلب أبنى بتلك السـهولة ! .. فقد ظلت والدته طوال جلسـتنا تتحدث عن شـجرة عائلتها الأرستقراطية ، وعائلة والد عادل الذين تمتد عروقهم للملوك ..

– سألتنى فجأة : هل عائلتك يعيشون بمصر أم فى إحدى الدول الغربية ؟ .. فقد أخبرنى عادل بأنكِ كاتبة مشهورة ولكنك أخفيتى هويتك لسنوات ..

حاولت أن الا أكشف لها التوتر الذى زلزلنى من حديثها .. وأجبتها بثبات مصطنع :

– ربما لم تمتد جذور عائلتى للملوك ، وربما أيضـــآ تفرقت عائلتى ، ولكن عادل أصـــبح كل ما أمتلك فى تلك الحياة ، مثلما كان فى حياتك أيضآ ؟

لا أعلم لماذا كانت كلماتى قاسية عليها ، فقد نهضـت السـيدة (سـوزان) فجأة .. وأخبرتنا بحدة شديدة بأن جلستنا قد إنتهت ولنا لقاءً آخر لاحقآ ..

فقد أثار تصرفها دهشة عادل ، وظن بأننى لم أروق لها ، وأنها ترفضنى كجزء من عائلتهم ..

سـألها سـريعآ عن سـبب تصـرفها ، فبررت تصـرفها بأنها شـعرت بألمآ فى رأسـها فجأة ، وأنها تنتظرنا بموعد آخر سـوف تحدده لاحقآ .. غادرت القصـر وانا اتسـائل : ما الذى أزعجها لهذه الدرجة ! ..

لاحظت شـرود عادل وأنه لم يتفوه ببنت شـفه ، وهذا أيضـآ أثار فضـولى ، فأنا لم أعتاد على صمته لمدة طويلة بقدر ما كان يتحدث طوال الوقت عن نفسه ومشاعره .. وكانت ملامح وجهه عابسة بدون أسباب .. لم أستطيع السيطرة على فضولى فى معرفة ما يزعجه ..

سألته مباشرة عن سبب عبوس وجهه ؟ ..

– عن ماذا كات حديثك مع والدتى ؟

– ليس هناك شـــيئآ هام ، لقد دار بيننا حديثآ عابرآ .. فقط أخبرتها بأنك كل ما أملك فى تلك الحياة القاسية ، وأنها بالتأكيد تشعر أنك هكذا أيضآ بالنسبة لها .. فأنت بالتأكيد جزءآ هامآ من حياتها .

ولكننى لسـت هكذا بالنسـبة لها يا مريم ، ولم أكون يومآ شـيئآ هامآ لها .. أتعلمين لماذا أخبرتك يومآ بأنكِ عائلتى الوحيدة بهذه الحياة ؟ .. لأننى خســرت عائلتى منذ هروبى من هذا القصــر الكبير .. لقد إعتقدت بأن ثروات تلك العائلة لى فقط .. لتكون حصـنآ لى من غدر هذا الزمن .. ولكننى علمت بأن تلك الثروات لتعيش هى حياة كريمة .. لا أتذكر متى آخر مرة عانقتنى أمى وســألتنى عن حالى .. كنت أهرب من الألم الذى أشــعر به من لامبالاتها تجاهى بالخمر .. والتمتع بمعاناة الفتيات حين يتعذبن من رفضـى لهن ، ولكننى كنت مدرك بأن ما أفعله بهن ليس فيه رحمة .. ولكنكِ دخلتى لعالمى الخاص تعلمت منكِ الحب والرحمة ، فأصبحت أجساد النساء

لا تغرينى بعد أن إمتلأ قلبى بعشـــقك .. وكلماتك تغنينى عن كأس الخمر الذى كنت أهرب به من الألم .. فأصـبحت سـعادتى مرتبطة بإبتسـامتك أنتِ ، ووجودك فى حياتى ليس له بديل .. وهذا ما شعرت أمى بالألم بسببه ، لأنها تعلم بأن دور الأم فى حياتى لا يناسبها ، وبأن فتاة لا تعرفها مسـبقآ إسـتطاعت أن تملأ ذلك الفراغ الذى لم تسـتطيع هى ملأه .. انا بحاجة اليكِ يا مريم .. هل ستتخلين عنى يومآ ؟ ..

كان يسألنى وكأنه يعلم بأن القدر ربما يفرقنا مرة أخرى .. وأنه لا يستطيع تحمل المزيد من الألم .. فأجبته بحسم :

انا خسـرت الكثير من المعارك فى حياتى يا عادل ، ربما لم أحارب بما يكفى لكسـب إحداهم ، وربما فى وقتها لم اكن أمتلك القوة لأنتصر فيهم ..ولكن اليوم أنا معركتى بينى وبين ذاتى .. فأنا أؤمن بأنك روحآ تسـكن روحى ، وعشـقك هو الشـعور الوحيد الذى أبقانى على قيد الحياة .. فمعركتى لن أتركها لغيرى يفوز بها .. و سـأدافع عن الشـئ الذى أمتلكه لأول مرة بدون تردد أو خوف .

***

إتصل بى السيد رياض يخبرنى بأنه لن يستطيع طباعة روايتى الأخيرة .. إندهشت :

– لماذا ؟ .. ماذا حدث يا أستاذى ، هل أخطأت معك بشئ ما ؟

رد بحزن شديد .. ليس الأمر بيدى يا مريم ، فهناك شيئآ ما يحدث ولا أعلم من المتسبب فيه .. فقد إختلق أحدهم كذبة ، بأنى أقوم بطباعة كتبآ سياسية فى دار النشر ، وأنتِ تعلمين بأن هذا ليس صحيحآ .. ولذلك لن أستطيع أن أطبع كتبآ جديدة الدار لفترة حتى ينتهى الأمر .

– ولكن يجب أن نبحث عن المتسبب فى ذلك ، ربما له هدفآ دنيئآ تجاهك ، هل يمكن أن يكون إحدى منافسيك ؟

– لا يمكن هذا ، فأنا أعمل منذ عشرات السنوات والجميع يعلمون بنزاهتى وليس لدى أعداء .. ولكنى سأحاول جاهدآ فى معرفة من المتسبب فى ذلك وما هو هدفه ، وسوف أخبرك بما توصلت إليه لاحقآ .

لم يقلقنى توقف طبع روايتى ، ولكن شعورى بالحزن مما أصاب السيد رياض كان أشد ألمآ .. فهو الأب الروحى بالنسبة لى ، فقد ساعدنى لسنوات حتى أصبحت تلك الأديبة التى يتحدث الجميع عنها .. فكرت طويلآ كيف أساعده ؟ .. لم تمضى ساعات حتى زارتنى وفاء .. يبدو على وجهها القلق الشديد وكأنها تخفى عنى أمر ما ..

– ما بكِ يا وفاء ؟ ، هل تخفين شيئآ عنى ؟

– ردت بإرتباك : لا .. إنه .. فقط .. ليس هناك شيئآ ما ..

– بل إن هناك شيئآ تخفيه عنى ، يجب أن تخبرينى ما هو ، ولا داعى للكذب فأنا أيضآ أشعر بما تخفيه دون أن تتحدثى عنه .

– لقد هاتفتنى السـيدة سـوزان أمس وطلبت منى أن أخبرك بأن ترحلى عن حياة عادل .. وأنها سوف تمنع هذا الزواج مهما كلفها الأمر .. وسوف تسعى لحرمانك من نجاحك الذى كان سبب فى عشق عادل لكِ .

– إذآ هى السبب فيما حدث للسيد رياض .. إنها تعتقد بأن عادل أحب نجاحى .. أو أنه تعلق بأديبته المفضلة وليس بى انا .

– كيف سـتتغلبين على تلك السـيدة يا مريم ؟ ، يبدو أنها ترغب بتزويج إبنه بإمرأة أخرى تعتقد بأنها تناسبه أكثر منكِ.

– بل هى لا تشـعر بعادل مطلقآ يا وفاء .. لا يتدرك ما تسـبب فيه من ألم له .. وانا عشـقته عشـقآ لن تفهمه هى .. فقد جمعنا الألم قبل أن يجمعنا العشـق .. ولن أتخلى عنه كما وعدته حتى لو تطلب الأمر خسارة كل ما حققته من نجاح .

لم يكن وعدى لعادل مجرد حديث عابر ، فأنا أسـتمد من عشـقى له قوة .. قوة تسـلحت بها لمواجهة السيدة سوزان .. حينما أخبرتنى بأنها تنتظرنى لنتحدث فى أمر زواجى بعادل .. أدركت بأنها تخطط لشئ ما أجهله .. ولكنى قابلتها تلك المرة بكامل قوتى وشموخى ..

– إبتسمت لى بثقة وخبث قائلة : إذا كنتِ تعتقدين بأننى سوف أتعاطف معكِ إن توسلتى إلىّ لأغير قرارى بشأن زواجك من عادل ، فتأكدى بأنكِ مخطئة .. إنه فقط مجرد وقت وسيعود عادل الى هذا القصر مرة أخرى ويتزوج بإبنة عمه التى إخترتها انا له.

– إنكِ لا تعلمين إذا كان هو يرغب بالزواج منها أم لا ! .. لا تعلمين أين يسكن قلبه ومشاعره التى تجاهلتيها لسنوات .. حان الوقت لتجبرين أمومتك أن تخضع لرغبة إبنك .. فهو لن يتخلى عن عشقآ قد وضع فيه كل ثقته ..

صمتت لبرهة .. وبدأ يظهر على وجهها ألم حاولت إخفائه بإبتسامة مزيفة .. ثم غادرت المكان دون أن تتفوه ببنت شفه .. لا أعلم إذا كان حديثى سوف يغير من الأمر شيئآ أم لا ! .. ولكن يبدو أنها تألمت أكثر مما توقعت ، فأصبحت تتصرف بلا رحمة .. فقد أعلنت حرب شرسة علىّ انا فقط دون عادل .. توغلت فى ماضىّ وفهمت نقاط ضعفى .. قررت فتح الصندوق الأسود الذى أخفيته بداخلى .. والضغط على جراح إعتقدت أننى تركتها خلفى حين غادرت تلك القرية وبدأت حياة جديدة.. سافرت السيدة سوزان الى تلك القرية التى غادرتها منذ سنوات لتعيد لى ذكريات تعلم أنها قادرة على تحطيمى .. حاولت أن تقنع والدى بأنه يجب عليه أن يبحث عنى ويعيدنى الى القرية مرة أخرى ..

لم أكن أدرك بأن ذلك الصندوق الذى يحتوى على جراح الماضى بأكملها يستطيع أن يحطمنى بسهولة .. حين أتذكر مجرد ذكرى من الماضى فتتحول حياتى لكتلة من الألم .. لم أدرك بأن حياتى تحولت لساحة من المعارك ، وأننى يجب أن أظل أحارب فيها حتى الرمق الأخير .

***

لقد نجحت السيدة سوزان فيما خططت له .. لقد فعلت ما لم يستطيع أحد فعله مع والدى منذ سنوات .. إستطاعت ان تعيده الى المدينة التى رحل عنها منذ زمن .. إستطاعت بصندوق من الأموال أن يحطمنى بما يحتويه صندوق الألم الموجود بداخلى .. فقد حضر والدى للمدينة معتقداً بأنه يستطيع أن يُعيد صغيرته الى القرية مرة أخرى .. تناسى أن طفلته لم تعد تلك الطفلة التى يُعنفها فتجلس متجمدة بإحدى أركان غرفتها وتبكى بصمت .. وانها تركت القرية هاربة من كل الألم ، ولن تعود لها مرة أخرى .. ولن أخاف تلك المرة من بطشه ، ولا من كلماته التى تخترق قلبى وعقلى .. قررت أن أخوض تلك المعركة بالألم الذى عانيته ، وان أُخرج كل جراحى المختبأة بداخل الصندوق الأسود الموجود بداخلى .. فمعركتى مع والدى لن تنجح سوى بإخراج كل هذا الألم من داخلى .. جلست أمام والدى .. تلك المرة لم أبكى ولم أرتجف كعادتى أمامه .. لم أختار الصمت كحديث مقتول .. إمتلأت رأسى فجأة بحديث كتمته مراراً أمام والدى .. ولكنه بات من الماضى فقررت إخراجه من داخلى وأن أطوى كل صفحات الماضى ..

– أتسائل يا والدى .. كم عاماً مضى وانا أتنفس ذلك الألم ؟ .. كم مرة شعرت فيها أننى لست إبنة لهذا الرجل وليس إبنة العار الذى جلبته أمى له ؟ .. كم ضربة تلقيتها وانا أتألم بصمت ؟ .. كم حلماً حُرمت منه وقلبى معلقاً بتحقيقه ؟.. كم يوماً غفوت وانا أتنفس هواء ممتلئ بالغضب الذى أخمد نيرانه الخوف ؟ .. سُلبت منى طفولتى .. و تطايرت أحلامى بالسماء .. ما الذنب الذى إقترفته لأعاقب على زواج إبن القرية من إبنة المدينة

لماذا أدفع انا ثمن زواج لم ترضى عنه العائلة ؟ .. هل سأعيش طوال عمرى أتألم بلا ذنب ؟ .. متى ستزول أثار التعنيف الموجودة على جسدى والتى رسمتها أنت وزوجاً أجبرتنى على الزواج منه ؟ .. متى ستكون مشاعر الأبوة بداخلك أقوى من كبريائك كرجل ؟ .. ماذا لو كانت

دموع ودعوات طفلتك الصغيرة وصلت للسماء ؟ .. هل تستطيع أن تنظر بعينى ولو مرة واحدة وتطلب منى شيئآ تريده بلا عنف ؟ .. إنك لن تستطيع فعل ذلك يا والدى لأن كبريائك وشعورك بأخطائك ورفضك لواقعك أقوى من أن تواجه نفسك به .. لن تعترف بأنك أب قد تسبب فى ضياع إبنته بين طيات هذا العالم الكبير .. لن تعترف بأنك ستُحاسب يومآ ما على ما أعانى منه حتى الآن يا والدى .. لن تجرؤ أن تنظر بعيناى لأنك سوف ترى فيهما الألم الذى يسكن بهما لسنوات بسببك ..

فلتكن مشيئة الله تلك المرة هى المُسيرة على كلانا .. صمتت .. إقترب والدى ليعانقنى ودموعه تنهمر .. ربما ذلك الألم الى أراه بعينيه يليق به " .. إنها المرة الأولى التى أرى فيها دموع والدى .. إبتعدت عنه خوفآ .. فالخوف عادة من عاداتى ..

– لا تقترب يا والدى .. فاليوم عليك أن تشعر بنفس الألم الذى شعرت به لسنوات ولم يستطيع احدآ محوه من داخلى .. يجب أن تشعر به وانت تحاول عناقى وانا أبتعد عنك خوفآ أن تلمس جسدى الذى مازالت أثار يديك موشومة بكل جزء فيه .. إن كنت تستطيع فرض مشيئتك ، وإجبارى على العودة لتلك القرية التى خلقت منك رجلآ بلا رحمة ، فلتكن مشيئتك يا والدى ..

لقد إنتهت معركتى الطويلة مع والدى .. ربما لم يزول كل الألم الذى تألمته لسنوات .. ولكنى أردت فقط إنتزاعه من داخلى حتى تُشفى جراحى وتتبدل الى أمل ..

***

آمنت ان الحب ينتصر فى كل المعارك إذا تمسك الحبيبان بقوة ذلك الحب .. وان للحب ملائكة تســـاعدهما حتى يكملان طريقهما مهما كانت العقبات بينهما .. ولكن القدر وحده يســـتطيع أن يغير كل شئ ..عدت أنا لكتاباتى بشغف أكبر مما سبق .. فالحب أصبح هو القائد لقلبى وعقلى .. وعاد عادل لعمله كطبيب مرة أخرى .. حينما عاد الى عمله لم يكن يدرك بأن القدر يخفى له ولى طريقآ آخر ..

فلم أكن أتوقع أن ين عشية وضحاها سوف يتغير العالم بسبب جائحة لم يعرف أحد كيف بدأت ومن أين مصدرها ! .. إجتاح العالم ڤيروس غريب ظهر فجأة ولم يجد له العلماء علاج .. تغير كل شئ من حولنا وكأن العالم قد هُدم وبُنى مرة أخرى .. فقد إعتزل الجميع فى منازلهم خوفآ من عدوى قد تصيبهم .. وأصبحت الشوارع خالية تمامآ من البشر .. كان ظهور هذا الڤيروس متزامنآ مع بداية عمل عادل بإحدى المستشفيات ..

برغم سعادته التى كانت تملأ صوته حين يحدثنى عن عمله والمجهود الذى يبذله فيه .. الا اننى أشـــعر بالخوف فى كل مرة يحدثنى فيها عبر الهاتف ، كان يلازمنى هاجس بأن شـــيئآ ما سـيفرقنى عنه .. أحاول طمس هذا الشـعور حتى لا يصـبح جزءآ منى كالهروب .. ولكن لما لا أخاف فالعالم كله فى ترقب .. نسـمع كل يوم خبر وفاة أخ أو صـديق أو جار فى كل عائلة .. الموت أصبح جنونى وعشوائى لا ينذر أحد ..

لم أعتاد على الفراق بقدر ما إعتدت على الهروب .. لم يكن الفراق عالقآ فى رأسى حين غادرت القرية .. أو رحلت والدتى عنى بعد ولادتى .. ولكن الفراق أصـــبح هاجســـآ يؤرقنى .. يؤلمنى لمجرد ســـماع تلك الكلمة .. لم أكن أعلم بأن فراق من نحب أشـــد ألمآ من هروبه .. فهاجس

الخوف من أن يرغمنا القدر أن نودع شخصآ نحبه للأبد بات يؤلمنى كثيرآ .. لا أحب الوداع .. لا أحب الفراق ..

حين طلبت من عادل أن يترك عمله خوفآ عليه من تلك الجائحة .. أجابنى بأنه جندى فى ميدان المعركة ولن يترك الميدان .. أما أن أموت كباقى الجنود أو أعود منتصرآ ..

رددت حينها بألم .. أتعلم بأننى لم تروق لى مقولة نجيب محفوظ عن الموت " الحياة فيض من الذكريات تصب فى بحر النسيان ، أما الموت فهو الحقيقة الراسخة " .. فبعض الذكريات لا تُنسى .. بل تظل عالقة بوجداننا حتى الممات .. والموت شعوره مؤلم على من ودّع حبيبه .. فمن منا يتقبل بتلك السهولة فراق من يحب ! .. من منا لم يتألم وقت الفراق ! .. فأنا لن أسمح للقدر بأن يؤلمنى تلك المرة .. سأتمسك بك حتى رمقى الأخير يا عادل ..

لقد مرت شهور ومازال الحال كما هو فى العالم .. بل أصبح الوضع أكثر خطورة .. ولا تواصل بينى وبين عادل سوى الهاتف .. إشتقت له كثيرآ ، إشتقت لحديثه وإبتسامته ، إشتقت لنظرته حين يخبرنى بأنتى كل ما يملك بهذا العالم ..

فى الثالثة صباحآ ، إستيقظت على صوت هاتفى .. كان المتصل عادل يحدثنى عبر الفيديو كول .. أجبت بقلق ..

– ماذا حدث يا عادل ، هل أنت بخير ؟

– أنا بخير حبيبتى .. لقد إشتقتك كثيرآ يا مريم .

زاد قلقى : ماذا بك يا عادل ؟ .. أنت تعلم بأنى أشعر بك دون أن تبوح بما داخلك .

– حين أشاهد المرضى لا يستطيعون التنفس .. أتألم يا مريم .. أتألم كثيراً .

شعرت بالخوف قد ملأ عينيه .. وماذا بعد يا عادل ؟ .. هل قررت الإستسلام ؟ .

– سوف تكتبين روايتك الجديدة عنا كما وعدتينى يا مريم ، اليس كذلك ؟

إرتجف جسدى وزادت دقاته فجأة ، وتلعثمت الحروف بفمى .. لماذا تذكرت هذا الآن ؟

– ربما سأكتبها معكِ ، وربما ستضطرين لكتابتها بمفردك .. لا أعلم .. ولكن هناك شعوراً غريباً تسلل الى قلبى فجأة ، ولكن إذا كتبتيها بمفردك .. فماذا ستكتبين عنى ؟

– وماذا تعتقد أن أكتب عنك ؟ .. هل أكتب ان الرجل الذى أحببته حباً عميقاً إستسلم ليأسه وقرر ان يرحل ، قرر أن يعيدنى مرة أخرى لعزلتى بعيداً عن العالم !.

– بل ستكتبين ان هناك رجلاً فى هذا العالم أحبك بشدة .. وانه أراد أن يبحث عن طريق يجمعه بكِ دون خوف .. وستكتبين أيضاً بأنه كان يحلم دائماً بالوصول الى قلبك .. فهل إستطاع ذلك ؟

بل إنا من أحببته للدرجة التى جعلته بداخلى جزءاً مني حتى أصبحنا كياناً واحداً .. انا أعلم أنه لن يتركنى فى هذا العالم بلا روح .

قال بأن المحبان إذا تلاقت أرواحهما فيصبحان كيان واحد .. بل يصبحان متشابهان .. متشابهان فى كل شئ .. فقد أدركت بأننى وعادل أصبحنا متشابهان .. وكأن أرواحنا قد إتحدت فى إحدى الحيوات السابقة .. أعلم بأن الموت لن يفرقنا قبل أن يتحد جسدينا أيضاً .. وسوف أنتصر أنا أيضاً فى ساحة معركتى مع الألم .. سأتمسك بالأمل حتى ننجو سوياً ..

حضرت السيدة سوزان لدار النشر ويعلو وجهها الشحوب .. فاجأتنى زيارتها .. فلم يدور بيننا أى حديث بعد إتفاقى أنا وعادل على الزواج .. لم تبدى حينها أى رد فعل وكأنها رضـــخت للأمر الواقع .. جلســـت بجوارى وطلبت أن يكون حديثنا خاصـــآ بعيدآ عن كل من بالدار .. لم يكن حديثها مقتضبآ أو قاسى بل كان هادءآ ممزوجآ بنبرة إنكسار .. لم تقلقنى زيارتها بقدر ما أقلقنى هدوئها .. تحدثت بتردد وكأنها تتحدث بما داخلها بصـــعوبة .. وبحروف متلعثمة بدأت حديثها ..

– لقد إمتلأ قلبى من الخوف من فراق عادل على كرهى لكِ .. ربما لم أكن أم حنونة .. حاولت أن أجمع أموال حتى أضمن لعادل حياة رغدة .. إعتقدت بأن ما سأتركه له من ثروة سيفيده أكثر من عناقى له حين يتألم .. لم أكن أدرك بأن ما يحتاجه منى هو الحب .. أنا أم تربيت فى بيت مفتقر للمشـــاعر .. كان والداى يجمعان الأموال خوفآ علينا من تقلبات الحياة .. كانت هذه طريقتهم للتعبير عن حبهم لنا .. وإتبعت انا خطاهم وإتخذت تلك الطريقة فى التعبير عن حبى لعادل .. ولكنه إختارك أنتى .. إختار العشق وتمسك به .. تمسك بكِ لأنك عشقتيه بطريقة لم يعشـــقها به احدآ مثلك .. أعلم أنك تعمدتى الهروب خوفآ عليه .. فحتى هروبك كان نابعآ من عشقك له .. لقد إنتصر عشقكما برغم كل ما واجهتوه سويآ .

حاولت السيدة سوزان تخفيف العبء الثقيل عليها .. وتقبلتنى كجزء من عائلتها .. لم ترغب فى إهدائى هدية زواج ثمينة .. لكنها أعادت لى عادل .. فتلك المرة لم تســـتثمر ثروتها فى خلق حواجز فى طريقنا .. بل إســـتغلت نفوذها فى تحررى من براثن الخوف .. أغرقتنى فى بحار

الطمأنينة والأمل .. وأصبحت طوق إنقاذ للكثير من مرضى الجائحة .. فقد أنشأت مستشفى عريقة لخدمة مرضى الجائحة .. وتم تعين عادل مديرها .. فهو وريثها وإرثها الوحيد كما وصفته لى ..

***

لقد آمنت والدة عادل وآمنت معها بأن هناك أمل يستطيع أن يقتل المستحيل .. يمحيه من حياتنا .. فقط إذا تمسكنا به .. إعتنقناه كما العبادات .. كانت أقدارى متقلبة ، وجميعها مؤلمة ربما لأننى لم أتمسك بالأمل ، بل كنت دائمة التذمر على ما أعانى منه .. ولكن العشق وحده قادر على محو اليأس كالموسيقى التى ينبض قلبنا معها وتمحو الكراهية من قلوبنا ..

فالعشق وحده من يصنع الأمل .. من يبقينا أحياء من يسعدنا به القدر " أحياناً " .. لقد كتبت جميع رواياتى وأنا اتوق لتجربة عشق تمحو من قلبى اليأس والكراهية للقدر .. فعشقت .. تومردت على اليأس .. اليوم أكتب روايتنا كما وعدت عادل .. أكتب له أننى عشقت رجلاً لم يمنحنى إرثاً مادياً .. بل لهيب من المشاعر مشتعلاً دائماً بداخلى .. يثور بى دائماً ليخرج من داخلى حروفاً ممتلئة بالشغف لكى أسردها على الورق .. يشاركنى عادل فى كتابتها أحياناً وقت فراغه .. ولكنه دوماً يشاركنى فى كتابتها بروحه التى تعانقنى ..

أكتب إليه اليوم نهاية روايتنا بأنه إنتصر فى تلك اللعبة ، فى تلك المقامرة .. إنتصر علىّ .. وخسرت انا أمام قدرى ..

ســـــأكتب روايتنا فى كل مرة كما لم يكتبها روائى من قبل .. فقد أدركت بإن القدر كفتاة متقلبة المزاج ، تصـــيبك بالحزن ليلة .. وتمنحك الســـعادة فى ليالٍ أخرى .. "وأن حياتنا ســـتظل رهن الأقدار ".

النـهـايـة